

حسين أحمد أمين

كيمياء السعادة

اقرأ

سلسلة ثقافية شهيرة
تصدر عن دار المعارف



اقرأ

سلسلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار المعارف

[٦٣٨]

رئيس التحرير: **رجب البنا**

تصميم الغلاف : منى جامع

حسين أحمد أمين

كيمياء السعادة

ناشط



دار المعارف

إن الذين عنوا بإنشاء هذه السلسلة
ونشرها ، لم يفكروا إلا فى شىء واحد ،
هو نشر الثقافة من حيث هى ثقافة ،
لا يريدون إلا أن يقرأ أبناء الشعوب
العربية . وأن ينتفعوا ، وأن تدعوهم هذه
القراءة إلى الاستزادة من الثقافة ،
والطموح إلى حياة عقلية أرقى وأخصب من
الحياة العقلية التى نحيها .

طه حسين

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كوريش النيل - القاهرة ج . م . ع .

الإهداء

إلى حفيدتي «أمينة»؛
جاءت في شتاء العُمر لتُحيَله ربيعاً،
ولتُضيفَ بُعْداً جديداً إلى أبعاد سعادتي
بالحياة.

مقدمة

أهمّ دواعى سعادتي بنشرى لهذا الكتاب فى سلسلة «اقرأ»، هو أن أبى المغفور له الدكتور أحمد أمين كان صاحب فكرة إصدار هذه السلسلة، ومن أوائل من أسهم بالتأليف لها.. ورغم أنه كان أثناء صبانا حسن الظن بمستقبلى ومستقبل أخى جلال، فما أحسب إلا أنه كان سيشعر بالدهشة، والغبطة، لو أنه علم وقت أن خطرت له فكرة السلسلة عام ١٩٤٣، أنها ستنتشر فى يوم ما كتاباً لكل من ولديه: «العولة» لجلال أمين فى أول نوفمبر ١٩٩٨، و «كيمياء السعادة» لى هذا الشهر.

وأنا أشكر الصديق العزيز، والصحافى البارز، الأستاذ رجب البنا أن جمع بين ثلاثتنا تحت مظلة سلسلة واحدة.

ثمة دون شك عامل الوراثة، لا عن والدنا فحسب وعن أبيه العالم الأزهرى، وإنما أيضا عن جدنا لأننا الدكتور أحمد حمدى (توفى عام ١٩٠٣) صاحب المؤلفات الهامة فى الطب، وأبيه محمد على باشا البقللى، المعروف بالحكيم (١٨١٣ - ١٨٧٦) الذى خلف كلوت بك فى مدرسة الطب فأصبح أول ناظر مصرى لها.

ثم البيئة.. فالمكتبة فى منزلنا كانت تحوى أكثر من عشرة آلاف مجلد باللغتين العربية والإنجليزية، فى التاريخ والأدب والفلسفة وعلوم الدين إلى آخره. وأصدقاء والدنا وتلاميذه ومعارفه والأدباء الناشئون، من أمثال نجيب محفوظ وعادل كامل، يهدون إليه كل كتاب جديد يصدر عنه. وهذه مكتبة النهضة المصرية التى تنشر كتبه يسمح والدنا لنا بشراء أى كتب نريدها منها ثم تخصم ثمنها من حسابه فى نهاية العام.. وحديث

والدنا إلينا كلما التقى بنا على مائدة الإفطار أو الغداء أو العشاء هو فيما يقرأ أو يكتب، أو هو يقصّ علينا ذكرياته عن كبار المفكرين فى زمنه، وطرائف عن الأدباء من أصدقائه، أو عن مداولات مجمع اللغة العربية فى اللغة، أو ينشدنا قصيدة راقتة من شعر ابن الرومى أو شوقي.. وأصدقائه الكتاب يزوروننا فى بيتنا فنجاذبهم أحياناً أطراف الحديث، ونسألهم الأسئلة فيجيبون عليها فى صبر وسعة صدر، وقد ينبىرى توفيق الحكيم أو محمود تيمور فيوصينا بقراءة هذا الكتاب أو ذلك. وفى أيام الخميس نعود فنلتقى بهم مجتمعين فى الندوات الأسبوعية بمقر لجنة التأليف والترجمة والنشر التى يرأسها أبى، والتى لا نزال نحمد له إلى اليوم سماحه لنا بحضور ندواتها كلما شئنا ونحن بعد دون سن العاشرة.

وكنا ندرك منذ نعومة أظفارنا أن توفير الناس لوالدى وإجلالهم إيّاه راجعان أساساً إلى أنه مفكّر ومؤرّخ وأديب، وهو ما انعكس أيضاً على معاملة المدرّسين لنا فى المدرسة. فكان أن عُرس فى وجداننا منذ طفولتنا وإلى اليوم الإيمان الراسخ بأنه ما من نشاط بشرى يفوق النشاط الفكرى قيمة، فلم نطمح فى يوم من الأيام إلى ممارسة غيره.

وثمة كذلك توجيه أبى إيّانا، خاصة منذ أن لس فينا إقبالاً شديداً على القراءة، ونهّمّا لا حدّ له إلى دراسة التاريخ والأدب. ولم يقتصر هذا التوجيه على انتقائه للكتب التى يرى لنا مصلحة فى قراءتها، فتعدّاه إلى ما هو أهمّ بكثير من ذلك، وهو تدريبنا على النقد والشك، والنظرة العلمية إلى المادة والمصادر، ولغت نظرننا إلى ما قد يتحكّم فى المؤلفين القدماء والمحدثين من أهواء مذهبية، ونزعات سياسية أو عصبية.

وقد كانت عناية أبى منصبةً أساساً على تعليمنا اللغات تعليمًا متقنًا. فانتقى لنا مدرّسًا ممتازًا للغة العربية، وآخر لا يقلّ امتيازًا للإنجليزية، وثالثًا وسطًا للفرنسية، ظلوا مدة عشر سنوات يعطوننا دروسًا خاصة في البيت في تلك اللغات، ويقرءون معنا كتبها.

وكانت النتيجة أننا لم نجد أبدًا، في أية مرحلة من مراحل حياتنا، أية صعوبة أو معاناة من جرّاء تنقّل قراءتنا من كتب التراث العربى القديمة إلى كتب المحدثين إلى كتب الفرنجة، أو إزاء ما يسمّيه البعض بمشكلة التراث والمعاصرة، وهى مشكلة تعلّمنّا من والدنا منذ الصغر أن ننظر إليها باعتبارها مشكلة عقيمة لا نحسب أن مجتمعات كثيرة غيرنا تعرف مثلها. وهى مشكلة أساسها عجز المتفرنجين عن استساغة التراث، ووصل ما بينهم وبين الماضى «عجز السلفيين عن المعاصرة والاستفادة من حضارات الغير بسبب جمودهم الفكرى أو قلة حصيلتهم من اللغات الأجنبية. وقديماً قال أبو حيان التوحيدي: «إن سمعت أحدهم يتلو ﴿ما عند الله خير وأبقى﴾» فاعلم أن لدى جاره وليمة لم يدعه إليها!»

حسين أحمد أمين

كيمياء السعادة

- ١ -

علّمتني الحياة

أما وقد جاوزت السادسة والستين، فقد بات بالوسع أن أقامل من فوق قمة الجبل ما سرت فيه أثناء صعودي إليها من دروب متعرجة، ومسالك متشعبة « بعضُها كان يؤدي بي إلى طريق خاطئ ممدود يضطرني إلى العودة أدراجي لالتماس غيره، وتصحيح مساري، وتعويض ما ضاع عليّ من الوقت.. وهي دروب ومسالك ما كنت أثناء تصعدي في الجبل أحسّ بتعرجها وتشعبها، أو أعلم بما ستؤدي إليه، حتى أشرفت الرحلة على النهاية، وأشرفت قرب نهاية الرحلة على هذه الدروب من عل، فأصبح بالوسع أن أثبتن في يسر ما ارتكبته من أخطاء، وما حالفتني من توفيق..

فإن كان الشباب عادة ما يأبى الاستفادة من تجارب من سبقوه، ويصرّ على حقّه في أن يجرب بنفسه وإن أخطأ وانحرف عن جادة الطريق، فسيظل من واجب الشيوخ أن يعرضوا ثمار خبراتهم، شاء الشباب أن يمدّ إليها يده أم أبى، وسيظل صحيحا القول بأن من شأن تلك الخبرات أن يوفر على الشباب المطلع عليها الكثير من الوقت والجهد، وقدرا كبيرا من الشقاء والحيرة، والتخبّط والزّلل، دون أن نعني بذلك إنكار حق الشباب في التماس طرق جديدة، ورفض بعض ممارسات لآبائهم لا هي أسعدتهم، ولا أوصلتهم إلى الغاية المنشودة.

غير أنه مما يشجّعنى أيضا على الحديث عما علمتنى الحياة إياه، وما كشفت لى عنه تجارى، هو أن حياتى إلى يومى هذا - رغم ما صادفنى خلالها من متاعب، وفترات من التخيّط - كانت إلى حدّ كبير، والله الحمد، حياة سعيدة هانئة، مستقرة راضية، ربما على نحو لا هو بالشائع ولا بالمألوف. فإن كان المثل يقول: «من تحدّث عن حسن حظّه كان الشرّ فى انتظاره»، فإن الآية القرآنية الكريمة تقول: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ وقد سبق للقديس فرانسيس داسيمى أن نصح أصحابه بأن يبدووا فرحهم بعقيدتهم، وأن يظهر من محياهم ومسلكهم ما يملكهم من السعادة إذ انتهجوا هذا النمط من العيش، إذ من المؤكد أن الناس سيتساءلون عما عساه قد عمر قلوبهم بهذه الغبطة والرضا وهودء البال، حتى إذا ما عرفوه مالوا إلى اختباره بأنفسهم.. وبذا فقد يكون من واجب كل إنسان تميّز الشطر الأعظم من حياته بقدر كبير من السعادة أن يعرض على الغير حصيلة تجاربه فى هذا الميدان، وخلاصة ما علمته الحياة بهذا الصدد، علّ الآخرين أن يفيدوا من هذه الحصيلة وهذه الخلاصة.

لقد استهلّ تولستوى روايته «أنا كارنينا» بقولته الشهيرة: «كل العائلات السعيدة يشبه بعضها بعضًا. أما العائلات الشقيّة فلدّى كل منها أسبابها الخاصة التى نجم شقاؤها عنها». وفى ظنى أن هذا القول ينطبق على الأفراد انطباقه على العائلات.. فكافة من عرفتهم أو قرأت أو سمعت عنهم من الأفراد السعداء يكادون أن يكونوا متشابهين فى أسباب سعادتهم، بحيث يحقّ لنا الحديث عن وجود مقومات ثابتة مطلقة للسعادة، وعن عناصر «كيميائية» تكونها أو تساعد على تكوينها.. قد يتحدث البعض عن أن السعادة نسبية تختلف أسبابها باختلاف الأفراد،

وأن ما من شأنه أن يُسعد هذا قد لا يسعد ذاك بالضرورة . غير أن هذا القول الذى قد يبدو للكثيرين سليما - والذى سنناقشه فيما بعد تفصيلا - لا يمكن أن ينتقص من حقيقة اشتراك السعداء فى سمات واحدة أو متقاربة ، وهو اشتراك ينفى عن السعادة صفة النسبية ، ويجعل من المشروع محاولة معرفة السبل المحددة التى يمكن للفرد أن ينتهجها فتؤدى به إلى السعادة ، والقول بوجود سعادة إيجابية رغم غلبة الشقاء على أغلب الناس ، ورغم حديث بعض الأديان ، والكثير من الفلاسفة ، وغالبية البشر ، عن أن الحياة شرّ محض ، أقصى ما يمكن للإنسان أن يبلغه فيها هو تجنب الألم قدر الإمكان.

ما هو خارج عن سلطان الفرد :

غير أنه لا مفر من أن أتدارك هنا فأوضح أن ثمة شروطا للسعادة لا تخضع لإرادة الفرد ، كالصحة ، والثروة ، وبهاء الطلعة ، وطيب المحدث ، والمزاج الشخصى ، والذكاء والمواهب ، والظروف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التى يعيش فيها . فهى إلى حدّ كبير من هبات القدر ، وقد لا تكون للفرد حيلة حيالها . فجمال المرأة مثلا - بل ووسامة الرجل - هما خطاب توصية مفتوح قد ييسّر لهما ما يجده غيرهما عسيرا . وثمة من الشروط كالظروف الاقتصادية والسياسية فى موطن الشخص ما قد يُسهم فى زيادة فرص سعادته وتحقيق ذاته وإشباع احتياجاته المادية والروحية وتنمية مواهبه ، أو فى الانتقاص منها . بل إن هناك من هذه الشروط ما قد يؤدى الافتقار إليها إلى إقامة عقبة كأداء فى سبيل نيل السعادة . فالصحة مثلا التى تشكل فى رأينا الخلفية

الضرورية لبناء حياة سعيدة قد يؤدي الافتقار إليها إلى فقدان القدرة على الاستمتاع بكل شيء آخر، كالثروة والشهرة والمركز الرفيع والمكانة الاجتماعية.. كذلك فإن المزاج الذى لا يكاد أن يكون للإنسان دخل فيه، من شأنه متى كان سوداويا أن يصيغ كل ما فى الحياة - حتى أبهى مظاهرها - بلونه وطابعه، بحيث تنطبق هنا قولة المتنبي:

وَمَنْ يَكُ ذَا فَمٍ مَّرٍّ مَرِيضٌ
يَجِدُ مَرًّا بِهِ الْمَاءَ الزَّلَالَا

ثم قد لا تكون الثروة على الإطلاق شرطا أساسيا أو ثانويا للسعادة، بدليل شيوع التماسه ومشاعر القلق والملل بين الأغنياء. (وهو ما حدا بتولستوى إلى القول فى روايته «الحرب والسلام» بأن منشأ كل ضروب التماسه ليس هو الفقر والحرمان، وإنما هو زيادة المال على الحاجة).. غير أنه من المؤكد، وإن لم يكن للثراء دخل أو تأثير فى السعادة، أن توفر المال قد يجنب المرء الكثير من ضروب الشقاء، وأن الفقر المدقع سبيل أكيد إلى خلق المتاعب والهموم والمشكلات..

كل هذا صحيح، وقد لا يكون للمرء - كما سبق أن ذكرت - حيلة فيه. غير أن الأمر الواضح هو شيوع المسخط وعدم الرضا حتى لدى موفورى الصحة وموفورى الثراء، وهو ما يستتبره سقيمو الصحة والفقراء بالأخص، فيغدو تعجبهم مصداقا لقولة برناردشو: «إن من تؤله ضروسه يظن كافة من لا تؤلهم ضروسهم سعداء!». وفى رأينا أن سبب فساد هذا الظن هو أن توفر الصحة وتوفر المال ليسا من مقومات السعادة وإنما هما من شروطها؛ أو بتمبير آخر: أنهما لا يحققان السعادة فى حد ذاتيهما، غير أن السعادة لا تتحقق مع الافتقار إليهما. فإن كان من الصعب أن

يستشعر من تؤله ضروسه بالسعادة وقت الألم، فلا مفرّ من الإقرار بأن ثمة ملايين التعماء فى عالمنا هذا ممن لا تؤلهم ضروسهم!

الإنسان السعيد:

فإن افترضنا تمتّع المرء بالصحة الطيبة وبقدر معقول من الاكتفاء المادى، وجدنا سائر الشروط التى لا غنى عنها لسعادة معظم البشر شروطاً لا يصعب توفرها: مثل الصداقة والحب، والحياة العائلية الهائلة، والنجاح فى العمل، والسمعة الطيبة، واحترام الآخرين. وهى شروط من البساطة بحيث يمكن للمرء أن يحققها لنفسه ببعض الجهد والحكمة وضبط السلوك، وبحيث يحق لنا أن نقول إن الإنسان الذى يتمتع بها ولا يشعر بالسعادة رغم ذلك يعانى من خلل نفسى معين. ويذهب الكاتب البريطانى ر. هـ. تونى R. H. Tawney إلى أنه «لو كان أمام المرء عمل هام، يُقبل بهمة على أدائه، ولديه من وقت الفراغ والدخل المادى ما يمكنه من أدائه على وجه طيب، فإنه يمتلك من أسباب السعادة كل ما بوسع بنى آدم أن يمتلكوه منها». وهى قوله أقرّها وأوافق عليها (مع ما فيها من بعض المبالغة) وأفسرها على النحو التالى:

أنه على فرض أن الظروف الخارجية التى تواجه الفرد ليست بالظروف واضحة السوء، فإن بوسعه أن ينال السعادة متى اتجهت عواطفه واهتماماته إلى خارج نفسه لا إلى داخلها، ولم ينحصر تفكيره فى ذاته.. فكما أنه من الصعب أن نتخيل إنساناً سعيداً داخل السجن، فإنه يصعب عليه أن يجد السعادة فى شرّ صنوف السجن طراً، ألا وهو سجن العواطف والشهوات التى تجعله حبيس ذاته. ومن بين أكثر هذه العواطف والمشاعر شيوعاً نجد الخوف، والحسد، والإحساس بالذنب

والتحسّر على النفس، والغرور.. فمع كل من هذه المشاعر تتركز رغائبنا على أنفسنا، فلا تدع مجالاً لاهتمام حقيقى بالعالم الخارجى، اللهم إلا ما يتعلق بالقلق من أن يحبط العالم الخارجى تطمعاتنا.. والخوف بالذات هو السبب الرئيسى فى عزوف الناس عن مواجهة الحقائق، وفى تفضيلهم الالتحاف بكساء الخرافة يلتمسون منه الدفء. غير أن أشواك الحقيقة سرعان ما تُحدث ثقباً فى كساء الخرافة، فتتخلّل الريح الباردة هذه الثقوب وتزعج المدثر به أكثر مما تزعج الإنسان الذى عود نفسه عليها منذ البداية.. أضف إلى ذلك أن أولئك الذين يخدعون أنفسهم غالباً ما يعرفون فى قرارة أنفسهم أنهم يخدعون أنفسهم، فإذا القلق يساورهم دائماً من أن يحدث لهم ما قد يكون من شأنه أن يفرض عليهم الحقائق التى كانوا يأبون فى إصرار قبولها.

فمندى إذن أن الإنسان السعيد هو الإنسان الموضوعى ذو الاهتمامات العديدة المتنوعة الخارجة عن نطاق ذاته. ومادام المرء مشغولاً بالتفكير فى أسباب تعاسته فسيظل دوماً محصوراً فى ذاته، وسجين نفسه، فيدور بالتالى فى حلقة مفرغة. وقد لاحظ الحكماء أن سرّ التعاسة يكمن فى وقت الفراغ الذى يُتاح للمرء فيه أن يتساءل عما إذا كان شقيّاً أو سعيداً، وذهبوا إلى أن علاجه هو فى العمل، بل هو فى الكدّ فى العمل حتى يصيب المرء التعب الذى هو من أشرط السعادة. ويكفى لأن ندلّل على ذلك أن نذكر أن استمتاعنا بسماع الموسيقى يبلغ أقصاه بعد العشاء فى نهاية يوم حافل. أما الموسيقى قبل الإفطار مثلاً فننفر منها، وتبدو لنا أمراً غير طبيعى. والإجازة الصيفية لمن لم يرهق نفسه فى الشتاء لا جدوى ولا طائل من ورائها، بل هى عبء حقيقى. كما أن الإجازة الدائمة التى يعيش فيها بعض الأثرياء هى أفضل تعريف للجحيم.

فإن شاء المرء الخروج من سجن ذاته فلا بد له من التركيز على اهتمامات حقيقية له نابعة من طبيعته. فأما الاهتمامات الزائفة التي قد يلجأ إليها من قبيل العلاج فلا جدوى منها. وأما الاهتمامات الحقيقية فستشعر المرء بأنه جزء من خضم الحياة وتياراتها، لا وحدة منفصلة صلبة ككرة البلياردو التي لا تربطها بالكرات الأخرى غير علاقة التصادم. مثل هذا الإنسان يشعر بأنه مواطن في الكون، يتابع المناظر والمشاهد التي تدور حوله باهتمام، ويستمتع بتأمله إياها، وبما توفره له من فرص البهجة، لا تزوره فكرة الموت، إذ هو يشعر أنه ما من شيء يفصله حقيقةً عن سيخلفه في الأرض.. وهذا الاتحاد الغريزي العميق مع تيار الحياة هو عندى أعظم سعادة يمكن للإنسان أن ينالها.

عن نسبية السعادة:

قد ينبىء البعض هنا بالاعتراض على افتراض أن مقومات السعادة واحدة أو متقاربة عند كافة، في الوقت الذي نلاحظ فيه أنه بالرغم من أن نيل السعادة هو هدف كل إنسان على وجه الأرض، فإن كل امرئ يسعى إليها بطريقة الخاصة، وينشد باسمها غايات مختلفة.

ولى على هذا الاعتراض عدد من التحفظات والاعتراضات المقابلة:

أولاً: أن ثمة من الفلاسفة - كالفيلسوف الألماني كانط - من يستنكر فكرة وجوب أن تكون السعادة الشخصية هي هدف الفرد، ويستنكر أن يوجه المرء تصرفاته من أجل تحقيقها. فهو يرى أن مبدأ السعادة الشخصية يتنافى مع القانون الأخلاقي. فالأول إنما يهدف إلى إشباعنا لكافة رغباتنا (وهو ما قد يتعارض مع مقتضيات سعادة الآخرين)، في

حين يقضى الثانى بأن يكون هدفنا، لا أن نكون سعداء، وإنما أن نصبح جديرين بالسعادة. فالرغبات وسبل إشباعها لا قيمة لها عنده، وإنما القيمة الحقيقية عنده هي في كيفية تنظيم حياتنا وسلوكنا على أسس أخلاقية سليمة بحيث نكون أهلاً للسعادة، نلناها بعد ذلك أم لم نلناها، وإن كان الأرجح أننا سننالها متى توفرت هذه الأسس. ويذهب كانط إلى أنه بالرغم من أن المرء لن ينال السعادة إلا عن طريق الالتزام بالواجبات الأخلاقية، فإنه لا ينبغي له أن يجعل من السعادة هدفاً للتعاضد بهذه الواجبات، وإلا لما كان تصرفه أخلاقياً، ولا كان جديراً بالسعادة الكاملة. فالقانون الأخلاقى يقضى بأداء الواجب دون شروط ودون متطلبات.. قد تكون السعادة هي ثمرة الالتزام به، غير أنه لا ينبغي أن يجعل المرء من نيلها شرطاً لهذا الالتزام.

ثانياً: أما عن القول بأن كلاً منا يسعى إلى نيل السعادة بطريقته الخاصة، وأن الناس يرونها في أمور متباينة شتى، فقول صحيح إن قصد به وصف الواقع الحى، ومخطئ إن قصد به أن سبل نيل السعادة تختلف من فرد إلى فرد، وأن ما من شأنه أن يسعد زيدا قد لا يسعد حمداً، وأن الرغبات التى يسعى هذا إلى إشباعها غير تلك التى يحاول إشباعها ذاك. وقد يكفينا ثلث على هذا الرأى أن نشير إلى عجز غالبية البشر عن نيل السعادة رغم سعيهم الدائب الجاد إليها عن طريق تحقيق أهدافهم الخاصة (كالثراء والجاه والشهرة والمركز الاجتماعى المرموق والزواج من شخص معين، إلى آخره)، مما يوحى بأن رغباتهم تلك لم تكن فى حقيقتها من مقومات السعادة، وأن الناس كثيراً ما يضلون ويفضلون الأسوأ على الأفضل، وكثيراً ما يصعون وراء ما قد يزيدهم بؤساً،

وأن الرغبة القوية فى الشئ قد تضفى على هذا الشئ سمات ظاهرية خداعة، سرعان ما يتبين أنه كالسراب ﴿ يحسبه الظمان ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده ﴾ .

ثالثاً: أن طبيعة الناس جميعاً هى فى الأصل واحدة، ولديهم نفس المجموعة من الرغبات والاحتياجات الطبيعية بحيث يمكن القول بأن الأمور الكفيلة بإشباعها هى واحدة بالنسبة للكافة، ويحق لنا عندئذ الحديث عن علم شبيه بالرياضيات أو الكيمياء يحدّد السبل المنطقية إلى نيل السعادة على نحو قد يصعب الجدل حوله. أما القول بأن الأفراد فى واقع الحال يلتمسون السعادة عند مصادر شتى، فلا يغير من حقيقة أن السعادة التى يجدر بهم التنقيب عنها ينبغى أن تناسب الطبيعة البشرية التى يشتركون فيها، وأنه من غير المجدى التماسها عند المصادر التى تحددها لهم طبائعهم الفردية، واحتياجاتهم الخاصة، وأمزجتهم المتنوعة. فهم فى هذه الحالة الأخيرة إزاء مفاهيم خاطئة، وحيال مصادر زائفة، تبدو قادرة على إشباع رغبتهم فى السعادة، دون أن تكون لديها فى الحقيقة هذه القدرة.

رابعاً: أن ثمة farkاً ضخماً بين الإحساس بالرضا، أو باللذة، أو حتى بالسعادة فى فترة معينة، وبين الحياة السعيدة فى مجموعها، وفارقاً بين قضاء وقت هنئ وبين العيش عيشة هائلة.. قد يستخدم الاثنان لفظ «السعادة» فى التعبير عن حالهما، غير أنه شتان بين من يستمتع لفترة محدودة، بلذة مؤقتة، يعقبها فتور وخمود وسعى إلى لذة أخرى، وبين من يجد الراحة الدائمة فى وضع معين لا يريد معه شيئاً آخر، ويحس

بأن لديه كل ما يحتاج إليه، ويعرف من السلام الداخلي، ومن انسجام الروح والتناسق الكامل بين كل مكوناتها، ما يغدو من الصعب معه على أى حدث خارجي أن يؤثر فيه أو يضره.

خامساً: قد يرى البعض السعادة فى نيل غرض معين، أو امتلاك شيء بعينه، كالثروة أو اللذة أو السلطة أو الشهرة أو من يعشقه. وحتى لو أنه لم يجعل من هذا الغرض أو الشيء سبيله الأوحى إلى السعادة، فهو يحلّه مكان الصدارة فى قائمة أولوياته. غير أن ربط السعادة بهدف واحد مع إغفال أو إهمال كل اعتبار عداه يُفسد من معنى السعادة، ناهيك عن تعريض المرء لكارثة كبرى فى حال تعدّر تحقيقه، أو فقده بعد تحقّقه ونيله.. قد لا يرغب البخیل إلا فى المال وحده، ويعتبر نفسه سعيداً إن هو استطاع أن يكون منه ثروة طائلة. غير أن عدم إنكارنا لحقه فى وصف نفسه بالسعادة لا ينفى حقنا فى اعتباره واهماً. فهو مع كل ثروته قد يحرم نفسه إبان تحصيلها من الأصدقاء أو المعرفة، أو الفضيلة أو الصحة، أو السمعة واحترام الآخرين وحبهم، ويعرّض نفسه للقلق والانشغال على احتمال فقدها. والراجح أن يؤدي تركيزه اهتمامه كله على هدف واحد إلى إحباط الكثير من احتياجاته الأخرى، وهى احتياجات قائمة لديه باعتباره بشراً، ولا بدّ له من إشباعها وفق درجة أهميتها التى تحددها الطبيعة البشرية نفسها، بحيث تضحي مقومات السعادة واحدة بالنسبة للكافة، وبالرغم من اختلاف ظروف الأفراد وطبيعة تكوينهم. واختصاراً فإنه ما من هدف معين ينبغي التركيز عليه دون غيره تركيزاً مخلّاً ومبالغاً فيه، حيث أن عقوبة الحصول على قدر هو أكثر مما ينبغي

الحصول عليه من شيء واحد هو حرمان النفس من احتياجات أخرى لازمة.

هل السعادة ممكنة؟

ثم أختتم هذا الفصل بإشارة إلى اعتقاد بعض المفكرين بأن السعادة هدف وهمي من الصعب، إن لم يكن من المستحيل تحقيقه، إزاء كل ما يحيط الحياة البشرية من شرور، ويتهدد الإنسان في كل لحظة من متاعب، وإزاء الضعف الكامن في الإنسان، والشر المهيمن على طبيعته. وقد ذهب سوفوكليس في إحدى مآسيه إلى أن خير ما يمكن أن يحدث للمرأة على الإطلاق هو ألا يولد، فإن وُلد فخير ما يمكن أن يحدث له هو أن يعود أدرجه سريعاً من حيث جاء! غير أن معظم من قال بمثل هذا هم من مفكرى العصور القديمة، وهى عصور عرفت الرق وعبودية المرأة، وتكرّر الأوبئة والطواعين، وانتشار المجاعات، وكثرة الحروب والصراعات، وغلبة الفقر والأمية، وهن الصلة العاطفية بين الأزواج، وبين الآباء والأبناء، والسلطة الاستبدادية للحكام، وضعف تأثير الرأى العام، والجهل بحقوق الإنسان أو الاستخفاف بها، وقسوة العقوبات، ووحشية معاملة المجانين والسجناء، وسوء الأحوال الصحية، والجهل بسبل الوقاية من الأمراض، وجلد الشعراء وقطع الرؤوس لمجرد نزوة من ولادة الأمر، وإحراق المبتدعين من المفكرين وتقطيع أوصالهم، وسوء حال المسئين والمعزة، وقلة وسائل الراحة والترويح عن النفس.. وكلها أمور أثقلت كاهل الإنسان، وفتت في عضده، وطبعت نظرته إلى الحياة بطابع سوداوى تشاؤمى.



فإن كنتُ هنا أختلف مع ما ذهب إليه سوفوكليس، فلستُ أقلّ
اعتراضاً على قوله تشيسترتون: «إن السعادة، كالدين، سرٌّ من الأسرار
الإلهية، لا ينبغي أن يكون للمنطق فيها دُخْلٌ». ففى زعمنا أن للسعادة
منطقاً يسهل إمطة اللثام عنه، ومقوّمات يمكن بالدراسة بيئتها وسبر
أغوارها.

— ٢ —

المزاج والشخصية

فن السعادة هو فن ترتيب حياتنا ترتيباً يضمن لنا أكبر قدر ممكن من المتعة والنجاح، ويجنبنا أكبر قدر ممكن من الألم والمتاعب والفشل.. غير أن كلمة «الترتيب» تُوحى بعمل إرادى، فى حين نجد أن جانباً هاماً من مقومات السعادة لا يتوقف على إرادة الفرد، ويمكن اعتباره هبةً من هبات الطبيعة، كرجاحة العقل، ونفاذ البصيرة، وسلامة الطوية، واستواء الشخصية، واعتدال المزاج. وكلها ميزات إن قورن صاحبها بصاحب الثراء الطائل، والمكانة الرفيعة، والشهرة الذائعة، والسلطة الواسعة، بدا كالملك فى الحقيقة بالمقارنة بالمثل الذى يؤدى دورَ الملك على المسرح أو الشاشة.

فالعنصر الأساسى فى سعادة الفرد هو طبيعة تكوينه: مزاجه وشخصيته اللذان هما المنبع الدائم لرضائه أو سخطه، واللذان يشكّلان الحصيصة النهائية لانطباعاته ورغباته وأفكاره، بينما لا نجد للأحداث الخارجة عنه إلا تأثيراً غير مباشر، لا يصل إليه إلا عبر هذا المزاج وهذه الشخصية، فيتلون بلونهما.. وهذا هو السبب فى أن الأحداث الخارجية الواحدة، والظروف نفسها، يختلف تأثيرها باختلاف كل فرد عن غيره.. وقد سبق لشكسبير فى مسرحيته «تاجر البندقية» أن ذكر أن ثمة من الناس من ينفجر بالضحك لأهون الأسباب وأبسطها، ومنهم من إذا قصّوا عليه نكتة ظلّ عابسا متجهّم الوجه وإن أقسم الفلاسفة له أنها نكتة ظريفة!

«بَعْدِكَ يَا عَيْن، مَا طَلَعَتْ شَمْس»

كذلك فإن لدى الفلاح المصرى مثلاً هو أصدق دلالة على ما نقول، وهو «بَعْدِكَ يَا عَيْن، ما طلعت شمس». ومعناه أن العالم الذى يعيش المرء فيه يتشكّل أساساً وفق طبيعة نظرتة إليه؛ وبالتالي فإن نفس العالم يبدو مختلفاً فى أعين الأفراد المختلفين. فهو فى نظر هذا صحراء جرداء مسطّحة تبعث على الملل والضيق، وفى نظر ذاك جنة مُورقة شائقة مفعمة بالمغزى والمعانى.. وكثيراً ما يسمع البعض ممّا أو يقرأ عن التجارب المتنوّعة الشائقة التى مرّ بها غيره أثناء حياته، فيغبطه أو يحسده، ويتمنّى أن تكون هذه التجارب والخبرات قد مرّت به هو، وكان الأولى به أن ينبط هذا الغير على ما يتمتع به من مزاج متألّق، واهتمامات ذهنية قوية، صبغت تلك الخبرات بصفتها، فبدت عند وصفه إيّاها رائعة طريفة، غنيّة بالمعانى.

فكل حدث يقع، وكل مؤثر خارجى، يتطلب تفاعل عنصرين: شخص وموضوع، هما رغم اختلافهما متّحدان اتحاد الأكسجين والهيدروجين فى الماء. فإن كان الموضوع واحداً واختلف تقييم الأشخاص له، وإحساسهم به، وموقفهم منه، بدا هذا الموضوع الواحد وكأنما هو موضوعات مختلفة شتى . إنه متى كان الشخص ذا مزاج حزين مكتئب، رأى المأسى والمتاعب فى أمور يرى فيها صاحب المزاج المعتدل صراعاً شائقاً ممتعاً جديراً بالدراسة، ولا يرى ثالث فيها أى مغزى أو معنى.. وكثيراً ما كان أبو حنيفة النعمان يقول لقلاميذه: «لو رأى السلاطين ما نحن فيه من لذة العلم، لقاتلونا عليه بالسيوف!». غير أن الغالب أن

هؤلاء السلاطين لو حصلوا بأسيا فهم على كل ما فى هذه الدنيا من مجلدات للعلوم، لحالت ضحالة قرائحهم دون أن يجدوا فى قراءتها من اللذة ما كان يجده أبو حنيفة وتلاميذه فى كتبهم ومحاوراتهم.. كذلك فإن الغنى النبىّ محدود الذكاء والمخيلة، لن يجد فى ضياعه وقصوره من المتعة ما توفر لسرفانتيس مثلاً وهو يؤلف رائعته «دون كيخوته» بين جدران السجن الضيق الذى ألقى فيه.

وتظل حياة كل فرد منا وشخصيته تحملان نفس الطابع من البداية إلى النهاية مهما اختلفت عليه الظروف الخارجية. فما هذه الظروف الخارجية إلا كالتنوعات على اللحن الأساسى فى المعزوفة الموسيقية.. وشخصية الفرد هى التى تحدّد سلفاً مدى قدرته على الإحساس بالسعادة، خاصة قواه الذهنية التى تتحكّم إلى الأبد فى قابليته للاستمتاع بأسمى صروب اللذة طراً.. فإن كانت هذه القوى محدودة، فلن يُجدى كثيراً أى جهد يبذله، ولا ما يمكن للناس حوله أو لثرائه وجاهه أن يوفره له من متع هى فى أغلبها متع حسّية، أو صحبة أمثاله من محدودى الأفق.. وفى المثل الشعبى: «الحمار مهما سافر، موش حابر جمع حسان!» ذلك أن أرقى صنوف المتع، وأكثرها تنوعاً، وأبقاها على الزمن، هى المتع العقلية، مهما ظن الشباب عكس ذلك، وهى متع تتوقّف درجتها على قدر ما يتمتع به المرء من ملكات ذهنية تصحبه أينما حلّ، فى الوطن والغربة، بين الناس وفى خلوته، لا يمكن لأحد أن يُضفيها عليه، أو أن يسلبه إياها. فهى إذن أكثر ما يملكه حيويّة وأهمية، وأقلها قابلية للتعويض.

أَلدَّ أعداء السعادة

نعم نحن فى حاجة إلى المال من أجل إشباع بعض الاحتياجات الضرورية والطبيعية. أما فيما عدا ذلك فإن تأثير الثروة فى قدر سعادتنا تأثير محدود للغاية، بل هى قد تقلل من سعادتنا بالنظر إلى ما يقتضيه الحفاظ على الثروة من قلق يصعب تجنّبه. والواقع أن معظم أولئك الذين نالوا الغنى فجاوزوا بذلك مرحلة الصراع مع مشكلات الفقر، ليسوا فى الحقيقة بأقلّ تعاسة من الفقراء. ذلك أن عقولهم خاوية، ومخيلتهم صلبة لا يعرفون الاحتياجات العقلية، ولا يعرفون بالتالى معنى الملذات العقلية. وإنه لمن السهل علينا فى مصر بالأخص أن نرصد وندرس حالة هؤلاء بعد أن نال الثراء فى ظل سياسة الانفتاح نوعاً من الناس هم بطبيعتهم ويحكم نشأتهم وتكوينهم لا يعرفون من المتع غير المتع الحسية، ويظنون أنفسهم قادرين على تحقيق السعادة لأنفسهم ولعائلاتهم عن طريق المزيد فالزيد من هذه المتع التى يخالونها ستمعوضهم عن غيرها.. سنجد أن الهمّ الأكبر لدى هؤلاء هو فى استهلاك الفاخر من الطعام والشراب، وفى النشاط الجنسي، واقتناء الأثاث وأحدث طراز من السيارات، وشراء الكماليات من السلع. غير أنهم إذ يُغرقون أنفسهم فى هذه الملذات الحسية، سرعان ما يدركون أنها لا تدوم لأكثر من أيام معدودات، أو ساعات معدودات، وأنها، علاوة على ذلك، باهظة الكلفة، ولم تكفهم شرّ الملل.

ذلك أن ألدَّ أعداء السعادة فى هذه الحياة الدنيا هما الألم والملل، بحيث يمكن وصفهما بأنهما قطبا الحياة، متى ابتعدنا عن أيهما اقترينا

من الآخر. فإن كانت الحاجة تسبّب للفقراء الألم، فإن المرء لا يتجاوزها حتى يبدأ شعوره بالملل. وأكثر الناس عرضةً للملل هم أفراد الطبقات العليا الذين تُقلقهم فكرة كيفية قضاء وقت فراغهم.. لذلك فإنه نادراً ما يطيق الغنى البقاء في داره. فهو فيها يستشعر الملل. غير أنه ما يخرج منها في طلب التسلية، حتى يدرك أنه في الخارج ليس بأسعد حالاً.. لذا تراه يبادر بالتوجّه إلى ضيعته في الريف، أو إلى فيلته في الغردقة أو الساحل الشمالى، يقود سيارته إليها في أقصى سرعة وكأنما يتوجّه إليها لإخماد حريق فيها. حتى إذا ما بلغها، وقضى بها بضع ساعات، عاد إليه الإحساس بالملل، فيغادرها عائداً أدراجَه، ويقود سيارته في أقصى سرعة إلى داره بالقاهرة وكأنما يريد إخماد حريق فيها.

فالشخص العادى إذن إنما ينشُدُ السعادة في أمور خارجة عنه، كالثروة، والمنصب، والشهرة، والنفوذ، وغير ذلك. وهو حين يفقد ما ناله منها، أو ينالها فلا يجد فيها السعادة التى ظنّها قائمة بها، يتحطم أساس سعادته. وبعبارة أخرى، فإن مركز الثقل عنده هو خارج نفسه، وهو يتغيّر بصفة مستمرة مع كل رغبة يشعر بها، أو نزوة تعنّ له.. فهو اليوم مشغول بفيلته في «مارينا»، وغداً بشراء طراز جديد من السيارات، وبعده بإقامة حفل عشاء راقص لأصدقائه، وبعده على مائدة القمار يضاعف رهانه، وبعده بالاستعداد للسفر إلى الخارج. وإذا تتبّد أوامره تدريجياً إذ لا يجد سعادة في هذا الأمر أو ذاك، يجد المتعة في إيهام الغير ممن هم ليسوا في ثرائه بأنه يجد سعادة بالغة في كل هذه الأمور، في غناه أو رتبته، أو نفوذه أو سلطانه، أو ضيعته أو فيلته، أو في سفره

أو علاقاته الاجتماعية أو الجنسية، فيهمّه أن يُظهر كل ذلك لأعين الناس، وينتهى به الحال إلى الرضا بحمد الناس له، وتوهمهم أنه لابدّ إنسان سعيد.

وهو أحياناً، وقد أدرك كُذِبَ الشهوة والثروة، يلتمس التسلية في نشاط ذهني رفيع، كالموسيقى أو القراءة، أو دراسة علم من العلوم، أو زيارة المعارض والتردد على المتاحف.. غير أن هذا النوع من النشاط مع أمثاله من محدودى القدرات العقلية سيظل دائماً ميلاً سطحياً غير طبيعي، لا يمكن مقارنته بالنشاط الفنى أو العلمى الخلاق، فيعاوده الإحساس بالملل، ما لم يكن الكتاب الذى يقرؤه رواية بوليسية، وما لم تكن الموسيقى التى يسمعها من ذلك النوع الشائع فى مصر فى يومنا هذا، مما لا يستهدف تحريك الوجدان والمشاعر، وإنما تحريك الأرداف والأكتاف. وهو نوع إنما شاع لتلبية احتياجات أفراد الطبقة الجديدة فى مجتمعنا، ممن حصلوا الثروة فعرضوا أنفسهم للملل، وظنّوا أن ترقيص الرّدْف قد يصرف الملل عنهم.

مثل هذا الشخص سيمسى دوماً إلى صحة أمثاله فى الميول والنزعات. أما صحة العقلاء والمفكرين وذوى المواهب فسيجدها ثييلة وعبثاً لا يطاق. فصحبتهم ستُشعره بنقصه، وثقوب نظرتهم ستجمله هاجزاً عن خداعهم وإيهامهم بأهميته أو بانه سعيد. وفشل تجاربه وخبراته فى مضمار نيل السمادة سيجمله يحسددهم. غير أنه سيخفى حتى عن نفسه هذا الإحساس بالحسد، بل ولن يبذل أدنى محاولة فى سبيل التشبّه والاقتراء بهم، لعلمه أنه لن يستطيع إلى ذلك سبيلاً، فيظل إلى آخر عمره يفضل

البحث عن السعادة فى الثراء والمركز والسلطة والشهرة والنفوذ، زاعما أنها أسمى ما يمكن للحياة أن تقدّمه للمرء من هبات.

المزاج والملكات

إن كل إنسان منا هو حبيس ذاته ووعيه، لا يستطيع الخروج عنهما أكثر مما يستطيع الخروج من جلده. وحيث أن كل ما يحدث وكل ما هو قائم خارج الفرد إنما يصل إليه عن طريق وعيه، فإن أهم شيء بالنسبة له هو طبيعة هذا الوعى وتكوينه. والواقع أن المزاج المعتدل الرائق الأميل إلى المرح والابتهاج هو أكثر الأشياء مسئولية عن سعادتنا، وأقدرها على تعويض افتقارنا إلى النعم الأخرى، خاصة متى اقترن هذا المزاج المعتدل بالصحة البدنية.. فالصحة تجبّ فى الأهمية كل ما عداها من هبات الطبيعة، بحيث يمكن القول بأن الشحاذ قوى الصحة أسعد حالا من الملك العليل. فإن ارتبط المزاج المرح بالجسم السليم، والعقلية القوية بالنشطة النفاذة التى ترى الأمور على حقيقتها، والرغبات المعتدلة القليلة، والضمير الهادئ المستريح، أمكن الإشارة إلى كل هذا على أنها الهبات التى لا يمكن لأية مزايا أخرى أن تعوّضها أو تعادلها فى الأهمية.

يقول الفيلسوف الإغريقى إبيكتيتوس إن المرء لا يتأثر بالأحداث والأشياء، وإنما بفكرته عن الأحداث والأشياء. فالمؤكد أن صاحب المزاج الحزين المكتئب سيصيبه الحزن إزاء المحزن من الأحداث، والغالب أنه لن يفرح كثيرا بسعيدها. أما صاحب المزاج المرح فلن يقلق كثيرا إزاء عواقب الأمور، غير أن فرحه سيكون عارما بالعواقب البهيجة. فإن فشل الأول فى واحد من مقاصده، ونجح فى تسعة مقاصد أخرى، فسيُتمسه

فشل الواحد. فى حين لو فشل الثانى فى تسعة أعشار مقاصده، ونجح فى واحد، فإنه سيجد العزاء والراحة فى نجاح الواحد. فكل المذات هى عند الإنسان ذى الشخصية المكتئبة غير المستوية هى كالماء الزلال فى فم المريض. أو كما يقول أوليفر جولد سميث فى ختام قصيدته «المسافر»:

«بكل مكان نحلّ فيه نجدنا إزاء أنفسنا محصورين داخلها، لا نجد السعادة أو المتعة إلا من خلالها».

وكما أن الدولة قد توصف بالغنى إن هى استغنت بمصادر ثروتها عن كافة الواردات من الخارج أو عن معظمها، فقد نعرّف الإنسان السعيد بأنه الشخص الذى يمتلك من عناصر الثراء الداخلى ما لا يحتاج معه إلا إلى القليل من العالم خارجه.. وقد حكى عن سُقراط أنه حين توجّه مرّة إلى السوق، وتأملّ مئات السلع المعروضة فيه، هتف بأصحابه قائلاً: «ألا ما أكثر الأشياء التى لا أريدها!». لهذا عرّف أرسطو السعادة بأنها الاكتفاء الذاتى. فكل ما يحسبه الناس من المصادر الأخرى للسعادة هو بطبيعته غير موثوق منه « مؤقت لا يمكن الاعتماد على دوامه أو استمراره مدة طويلة، أو هو خاضع للحظ، قابل للنفاذ، أو غير قابل لأن تناله الكافة، أو هو عرضة لانفراط عقده مع التقدم فى السن، فيقول عندئذ ما أجاب به الخليفة عبد الملك بن مروان فى شيخوخته رجلاً سأله عن صحته:

«أجندنى وقد اسودّ مئى ما أحببتُ أن يَبْيَضَ، وابيضْ مئى ما أحببتُ أن يسودّ، واشتدّ مئى ما أحببتُ أن يلين، ولان مئى ما أحببتُ أن يشتدّ!».

حينئذ لا يبقى قائماً مع المرء غير ما يمتلكه من مواهب وقدرات ذهنية وروحية.. فالإنسان الغنى بذاته هو كالحجرة المضيئة الدافئة في ليلة من ليالى الشتاء الباردة، لا يترك ثراء عقله مجالاً للإحساس بالملل، وهو الذى يجد نفسه إزاء حشد من الأمور والمعضلات الداعية إلى التفكير والتأمل، أو إلى صوغها فى قالب فنى.. فهو إذ ينهمك فى ملذاته العقلية والفنية، تقل حاجته إلى الآخرين، وإلى الأشياء خارجه، يرحّب بالعزلة وبوقت الفراغ اللازمين للتفكير والإنتاج الفنى، ويرى ما عداها غير ضرورى بل وعبئاً ثقيلاً عليه، وأن الواردات من الخارج، بالنسبة له كما بالنسبة للدولة، باهظة الكلفة، موجبة للاعتماد على الغير، حاوية للمخاطر، مثيرة للمتابيح..

وقت الفراغ وتنمية الملكات

إن الإنسان الثرى محدود القدرات الذهنية لا يكاد يتجاوز مشكلات الفقر حتى يبدأ فى سعيه وراء ما يلهيه ويشغله عن ذاته، كارهاً للخلوة التى يضطر أثناءها اضطراراً إلى مواجهة فقره الداخلى، وهو ما ليس بوسعه التخلص منه، ولا تجنّب معاناته إلا بالاستغراق فى مختلف صنوف الملاهى والتسلية والملاذات الحسية وتحصيل الكماليات مهما أذى به هذا التحصيل إلى التبذير والسرف. فأوقات الفراغ هى عنده دائماً عبء ثقيل، فى حين يراها الفيلسوف والمفكر والفنان ثمرة هذا الوجود، وأثمن ما فى الكون، فيحاولون استخدامها واستغلالها قدر الإمكان.. وهم يعلمون أن سعادة الإنسان الحقيقية هى فى ممارسته الحرة لأسمى ملكاته، وأنه إن كانت القدرات الذهنية والفنية هبات من الطبيعة

لا دخل لإرادة الفرد فيها، فإنه لما يخضع لإرادتنا قرارنا بأن نستغل قدر الإمكان هذه القدرات والملكات الشخصية، وأن ننشد لها الكمال ما وجدنا إلى ذلك سبيلاً، فلا نختار لأنفسنا من الموقع أو العمل أو أسلوب العيش إلا ما نعلم أنه الأنسب لتنميتها، ولا نطلب من الأهداف إلا ما نشق في أنه سيغذيها ويحركها.



خلاصة القول هي أن ثراء الروح والعقل - فيما يبدو لنا - هو الثراء الحقيقي الوحيد، وأن صاحب القدرات العقلية، والملكات الفنية، والثروة الروحية الداخلية، هو أسعد الناس جميعاً. فهو لا يطلب من دنياه خارجه غير أن تتيح له من وقت الفراغ والهدوء والاكتفاء المادى ما يسمح له بتنمية ذاته، والاستمتاع بثروته، واستخدام ممتلكاته.. وبعبارة أخرى، هو لا يريد منها غير أن تاذن له بأن يكون نفسه، طيلة حياته، فى كل يوم، وفى كل ساعة.. أما ما عدا ذلك فقليل الأهمية، لا يجدر به أن يلتفت إليه.

السَّعادة العائلية

لا شكَّ عندى فى أن عاطفة الحب التى يشعر بها الآباء نحو أبنائهم، والأبناء نحو آبائهم، يمكن أن تكون أحد المصادر الرئيسية للسعادة. غير أننا إذ نتطَّلَع حولنا فى زمننا هذا نجد أن العلاقة بين الآباء والأبناء هى فى تسعة أعشار الحالات مصدر لتعاسة الطرفين معاً، وأنها فى تسع وتسعين من كل مائة حالة مصدر تعاسة طرف واحد منهما على الأقل.. والواقع أن عجز العائلة عن أن توفّر لأفرادها السعادة التى هى قادرة من حيث المبدأ على توفيرها، هو من أبرز أسباب شيوع مشاعر السخط وعدم الرضا فى المجتمع الحديث.

وللتعاسة العائلية فى عصرنا من الأسباب ما لا يكاد يمكن حصره؛ من نفسية واقتصادية واجتماعية وحضارية، بل وسياسية أيضاً. إذ لاشك فى أنه فى الدّول التى يمسودها القهر السياسى والاجتماعى والاقتصادى يميل الرجال إلى اعتبار عائلاتهم المجال الوحيد المتبقى لهم لممارسة سلطانهم واستبدادهم، والتنفيس عما يشعرون به من قهر، فتضحي الزوجات والأبناء فى حكم الإماء والأسرى فى قبضتهم. وعلى طرف نقيض نجد أنه فى المجتمعات الديموقراطية الحرّة التى تفتشت فيها نظريات تربوية كنظريات دكتور سيوك، لم يعد الآباء واثقين من حقوقهم تجاه أبنائهم، ولا من طبيعة التربية الحكيمة لهم، كما لم يعد الأبناء يشعرون بأن من واجبهم طاعة الآباء واحترامهم. فقد ولّى زمان الطاعة الكاملة التى كانت

تعدّ في الماضي من المسلّمات، وتؤخذ على أنها أمر مفروغ منه. بل إن الآباء أنفسهم باتوا يخشون العواقب الضارة بنفسية أطفالهم مما قد يترتب على هذه الطاعة الكاملة. وهم يستشعرون القلق في كل مرة يحضنون فيها أو يقبلون أبناءهم خشية أن يصابوا بعقدة أوديب، ويستشعرون القلق متى أحجموا عن احتضانهم وتقبيلهم خشية أن يصيبهم الإحباط والغيرة. فإن رأوا الطفل يمصّ إصبعه انتابهم الجزع إذ يحاولون تفسير مصدر هذه العادة، وتتتابهم الحيرة إذ يفكرون في كيفية علاجها وتخليصه منها.

فالأبوة التي كانت في الماضي أمراً بسيطاً وسهلاً نسبياً حين كان الآباء لا يتردّدون في ممارسة سلطانهم، أضحت اليوم - خاصة في المجتمعات المتقدمة - وضعاً مفعماً بالشكوك والقلق وتأنيب الضمير والحذر والتردد، بحيث أفقدها معظم ملذّاتها ودواعي سعادتها، وبحيث أضحى هذا من أسباب هبوط معدّل المواليد في الدول الغنية المتحضرة:

وهل أنا مسرور بقرب أقرابي

إذا كان لي منهم قلوبُ الأبايدِ ؟

(أبو فراس)

ففي تلك الدول (حضارة الجنس الأبيض) يتنا نلمس ظاهرة فريدة، وهي أنه بازدياد استيعاب الرجال والنساء فيها لهذه الحضارة يستفحل العقم فيهم. ذلك أن أكثر الناس تحضراً هم أقلهم إنجاباً، وأقلهم تحضراً أكثرهم إنجاباً. ولذا نجد في زماننا هذا أن أذكى شرائح المجتمع في الدول الغربية تميل إلى الإنقراض، وأن تعداد سكان تلك الدول في

مجموعها يعيد إلى الانخفاض، ولا يعوّض عن هذا الانخفاض سوى قبول المهاجرين إليها من الدول الأقل تحضراً.

قد تنبرى الحكومة ورجال الدين هناك (كما يحدث في دولة إسرائيل). بنصح الناس بزيادة نسلهم باعتبار ذلك واجباً قومياً. غير أن القليلين جداً من الرجال والنساء هم الذين ينجبون الأطفال استجابة لدواعي الواجب القومي. وإنما هم ينجبون حين يحدوهم إلى ذلك الأمل في أن يزيد الأطفال من سعادتهم، أو حين يجهلون سبل تجنّب الإنجاب. وقد كاد الجهل بسبل تجنّب الإنجاب يخفى تماماً في العصر الحديث. وإذ ليس بوسع الحكومات أو رجال الدين أن يحولوا دون هذا الانخفاض في معدل الإنجاب، فقد بات لزاماً من أجل ضمان تكاثر أفراد الطبقات المتحضرة والمثقفة الذكية أن تعود الأبوة مصدر سعادة أكيدة للأبوين.

متاعب الأمومة

لطالما كانت النساء في الغرب في الماضي، وفي الشرق إلى يومنا هذا، يضطرون إلى قبول الزواج فراراً بأنفسهن من أوضاع معيشية غير كريمة تتعرّض لها العانس بسبب اعتمادها الاقتصادي على الأب أولاً، ثم على أخ قد يوفر المأوى لها عنده ولكن عن غير طيب خاطر، فتجد العانس نفسها عندئذ دون عمل مجدٍ تشغل به يومها، ودون حرية الاستمتاع بالدنيا خارج دارها. أما اليوم، خاصة في الدول المتقدمة، فإن بوسع العانس متى كانت قد تلقت قسطاً طيباً من التعليم أن تهين لنفسها حياة مريحة كريمة خصبة دون حاجة إلى موافقة الأبوين. والواقع أن الآباء منذ

فقدوا سلطتهم الاقتصادية على بناتهم اضطروا إلى الحد من التعبير عن استنكارهم الأخلاقي لسلوكهن، إذ ليس ثمة جدوى من توبيخ من هو على غير استعداد للاستماع إليه. وهكذا أضحى بوسع الشابة غير المتزوجة اليوم أن تعيش عيشة راضية، ما لم تكن لديها رغبة قوية فى إنجاب الأطفال.

وتقودنا هذه النقطة الأخيرة إلى مشكلة ضخمة نجمت إلى حد كبير عن ندرة الخدم والمربيات فى عصرنا الحديث. فالأم بطبيعتها شديدة الارتباط ببيتها، وعليها أن تؤدى فيه مئات الأعمال الصغيرة مما لا يتفق فى الكثير من الحالات مع قدراتها ومؤهلاتها وثقافتها. ويكاد يكون من المحال دون مخاطرة منها أن تترك طفلها للخدم ينهضون إزاءه حتى بأبسط المهام المتصلة بالنظافة والصحة، ما لم تُلحق بخدمتها مربية مدربة على مستوى عالٍ وتتقاضى أجراً باهظاً قد يعادل أو يفوق مرتبتها هى. والملاحظ أن الأم التى تفضل العمل خارج بيتها على رعاية طفلها بنفسها تُفسد مزاجها بكثرة تأنيبها للخدم على إهمالهم لواجباتهم. أما إن هى قررت رعاية الطفل والدّار والقيام بذلك الحشد من المهام المتأففة التى هى من مقومات هذه الرعاية، فإنها تكون سعيدة الحظ إن هى لم تفقد جمالها ورونقها وثلاثة أرباع ذكائها من جراء هذا النوع من النشاط. والمحزن حقاً أنه كثيراً جداً ما يؤدى انشغال المرأة الكامل بمسئولياتها المنزلية والتربوية إلى أن تصبح فى النهاية عبئاً على زوجها، بل ومصدر ضيق لأطفالها. فحديثها فى هذه الحالة كثيراً ما تستغرقه مشاكلها اليومية، وهو حديث يملّه معظم الناس حولها. أضف إلى ذلك أن كثرة التضحيات التى تبذلها فى سبيل رعاية أطفالها هى ماثلة دوماً أمام عينيها، وتدفعها

إلى أن تطالبهم بنوع من المكافأة عليها أو التعويض عنها، وهو ما قد لا يكونون مستعدين لتقديره. كذلك فإن انشغالها معظم الوقت بأمور سطحية وتفاصيل تافهة يجعلها هي نفسها تافهة كثيرة الشكوى والسخط، متهيجة الأعصاب.. وكلها أمور نرى فيها ظمناً فادحاً للمرأة: فهي إن أدت واجباتها كاملة تجاه بيتها وأفراد عائلتها أزعجتهم وفقدت حُبهم، وإن هي أهملت هذه الواجبات فاحتفظت بمرحها وحيويتها، وجمالها وفنتتها، أبقت على حُبهم لها وتعلقهم بها!

الأبوة مصدر رئيسي للسعادة

وثمة مشكلات أخرى مما تعرفه الكافة تنجم عن إنجاب الأطفال. فالولئك الذين يعيشون في المدن يسكنون في العادة في شقق ضيقة المساحة ليس فيها من المكان الكافي للهو الأطفال، ولا المكان النائي الذي يمكن للآباء فيه أن يتجنبوا ضوضاءهم. وهناك مشكلات المراهقة، والأعباء المادية في زمن صعب، والخلافات بين الزوجين حول أسلوب التربية، والقلق المستمر الناجم عن الأزمات الصحية، وانحراف السلوك، واضطراب التعليم، وتأخر سن الزواج، ومشكلات الجنس، والافتقار إلى الاحترام والطاعة، واضطرار الأبوين بسبب المسؤوليات المتزايدة إلى تقبل أوضاع ما كانوا ليتقبلونها لولاها. فالولد - كما جاء في الحديث (مبخله مجبنة) - وقد حُكي أن الزاهد سُفيان بن عُيينة حين شوهه منتظراً في ذلة على باب السلطان قيل له ما هذا موقفك، فقال: وهل رأيتم ذاك عيالاً أفلح؟!

ومع كل هذا، وبصرف النظر عن ظروف الزمن والراهن وملابساته، ففي ظننا أن بوسع الأبوة والأمومة أن تكونا من أعظم وأبقى مصادر السعادة

التي توفرها الحياة لنا، خاصة بالنسبة للنساء.. قال ابن المبارك وهو مع جيش المسلمين في غزو: (تعلمون عملاً أفضل مما نحن فيه؟) قالوا: (ما هو؟) قال: (رجل ذو عائلة قام من الليل فنظر إلى صبيانه نياماً متكشّفين فغطّاهم بثوبه).. وقيل للزاهد إبراهيم بن أدهم: (طوبى لك فقد تفرّغت للعبادة بالمزوبة). فقال: (لرّوعة منك بسبب العيال أفضل من جميع ما أنا فيه!). هذا إلى أننا نجد في الكثير من الكتب المقدسة انشغالاً كبيراً من جانب الرجال والنساء بأن يخلّفوا وراءهم نسلاً، وهو ما يدل على أن إنجاب الأطفال كان دائماً يُعتبر من أهم شروط السعادة . ﴿قال ربّ أئني يكون لي غلامٌ وكانت امرأتى عاقراً﴾. ﴿وانى خفت الموالى من ورائى وكانت امرأتى عاقراً﴾. ﴿فأقبلت امرأته فى صرّة فصكت وجهها وقالت عجوزٌ عقيمٌ﴾.

فالواضح أن المرء كى تتوفر السعادة له فى هذه الدنيا - خاصة متى ولّى الشباب - يحتاج إلى إحساس بأنه ليس مجرد فرد فى عزلة عما حوله ومن حوله، وعما قريب ينتهى أجله، وإنما هو جزء من تيار الحياة المتدفق من مصدر أو بداية ما، إلى مستقبل بعيد لا يُعرف منتهاه.

قد يكون صحيحاً أن الشخص القادر على النهوض بإنجازات عظيمة، فكرية أو فنية أو سياسية أو عسكرية، تطبع العصور التالية بطابعها وتؤثر فيها تأثيراً عميقاً، قد يرى فى إنجازاته إشباعاً لتلك الحاجة التى نتحدث عنها. غير أنه بالنسبة لغالبية البشر، للعاديين من الرجال والنساء العاجزين عن تقديم إسهام خالد، نجد إنجاب النسل هو السبيل الوحيد لإشباع تلك الحاجة. فالغالب أن يشعر من لم يتنجبوا (سواء عن

عمد أو رغما عنهم) بأنهم قد انفصلوا بذواتهم عن تيار الحياة ، وبأن
المنية إن جاءتهم قضت على كل شىء. فالحياة التى ستستمر بعدهم
لا تعنيهم فى قليل أو كثير. ولذا تبدو لهم أعمالهم وكل نواحي نشاطهم
فى الدنيا تافهة لا قيمة لها. أما بالنسبة لمن له أولاد وأحفاد يحبهم،
ويأبه لهم ول مستقبلهم، فإن المستقبل ذو أهمية عظيمة. ولذا يمكن القول
بأن الشخص الذى تتجاوز اهتماماته حدود حياته يشعر بأنه قد وسَّع من
هذه الحدود، وأضاف إلى حياته بعداً جديداً. وعندئذ يتبدد إحساسه
بتفاهة شأنه وشأن نشاطاته ، وهو إحساس كفيف بأمانة كل عواطفه أو
جُلِّها.



وأساس العائلة بطبيعة الحال هو أن الآباء يشعرون تجاه أطفالهم
بموءة خاصة تختلف فى طبيعتها وقدرها عن المودة التى يشعر الزوج بها
نحو زوجته، أو الزوجة نحو زوجها، أو الإثنان نحو أطفال الآخرين..
صحيح أن بعض الرجال قد لا يشعرون بعاطفة قوية من الحب تجاه
أبنائهم، وأن بعض النساء قد يكتون من الحب لأطفال غيرهن ما يكتونه
لأطفالهن لو أنجن. غير أن القاعدة العامة هى أن حبّ الآباء والأمهات
لأبنائهم يختلف عن أى حبّ قد يشعرون به تجاه إنسان آخر. وهو
عاطفة يعرفها بعض الحيوانات والطيور كما يعرفها البشر.

هذه الموءة الخاصة التى يحملها الآباء لأبنائهم هى ذات قيمة ضخمة
سواء بالنسبة للآباء أو بالنسبة للأبناء. وقيمتها بالنسبة للأبناء تتمثل فى
أنها، إلى حد بعيد، هى العاطفة التى يمكن الاعتماد عليها أكثر من

غيرها من صنوف المودة والحب. فأصدقاء المرء إنما يحبونه لشماثله وطبعه ومزاياه. وعشاقه إنما يعشقونه لمسحره الخاص ومفاته. حتى إذا ما زالت هذه المزايا، أو تغيرت الشماثل والطباع، أو اختفى ذلك السحر، تفرق الأصدقاء والعشاق من حوله. أما عن عاطفة الأبوة والأمومة فإنما يمكن للمرء أن يعتمد عليها بصفة خاصة وقت الأزمات: في الكوارث وحالات المرض، بل وحتى عند فقدان السمعة. فأبائنا وأمهاتنا يحبوننا لأننا أولادهم لا لأى سبب آخر. وإذا أن الأبوة والأمومة حقيقتان ثابتتان لا تتغيران، فإنه يمكن للأبناء الاطمئنان إلى استمرار المودة النابعة عنهما، والاعتماد بصددهما على آباءهم وأمهاتهم أكثر من اعتمادهم على أى شخص آخر. فإن لم يكن لهذا الاعتماد قيمة كبرى في زمن النجاح، فإنه يوفّر في زمن الفشل القدر الأكبر من العزاء والأمن والراحة، مما نفتقده في أى مصدر آخر.



لا شك في أن العلاقة الإنسانية المثلى هي تلك التى ترضى جميع أطرافها. وهي حقيقة تنطبق بالأخص فى مجال العلاقات بين الآباء والأبناء.

ذلك أن للسعادة التى توفرها الأبوة للمرء شقين: الأول، إحساسه بأن جزءاً من جسمه قد تجسّد خارجه، فيطوّل بذلك أمد حياته إلى ما بعد موته هو. والثانى، ذلك المزيج القوى الغريب من السلطة ومشاعر المودة والحنان.. فالمخلوق الجديد الذى ظهر فى محيط العائلة مخلوق ضعيف لاحول له ولا قوة، هو لاشك هالك ما لم ينهض النغير بتوفير احتياجاته. والحافز لدى الأبوين إلى النهوض بتوفير هذه الاحتياجات لا يُشبع عاطفة

الحب للطفل فحسب، وإنما يشبع كذلك عاطفة حب السلطة والاحساس بالقوة تجاه مخلوق آخر. ومن هنا ينبع التّصارع بين العاطفتين مما قد لا يكون بعض الآباء والأمهات على وعى به، فيظلون لسنوات طويلة على تمسّكهم بسلطتهم إزاء أبنائهم حتى يتمكن هؤلاء في وقت من الأوقات من رفع راية العصيان والتمرد.. وهو صراع غالبا ما يؤدى إلى ضياع السعادة الأبوية. فبعد كل ما بذله الآباء والأمهات من تضحيات، وكل ما أغدقوه من رعاية، قد يكتشفون، لعلهم الشديد، أن الطفل قد غدا إنسانا شديد الاختلاف عما كانوا يأملونه ويحلمون به.. وقد تتسبّب هذه النزعة إلى السيطرة والتّمكّك لدى الآباء فى ألف صورة من صور إساءة التصرف تجاه أبنائهم. وهى ظاهرة من الشيوخ - خاصة فى مجتمعاتنا الشرقية - بحيث لا تكاد نستثنى منها غير آباء وأمهات بالغى الرقة والقدرة على التفهّم والتعقّل، والاستعداد لاحترام شخصية أبنائهم على أى صورة تتخذها.

إن احترام شخصية الآخر أمر بالغ الأهمية والحيوية فى مختلف المجالات: فى الزواج وفى الصداقة، وفى العلاقات السياسية بين الدول، وبين الجماعات البشرية.. غير أنه مع أهمية هذا الاحترام وضرورة الرقة والدمائة فى معاملة الغير، فإنها أهمّ ما تكون فيما يتصل بأطفالنا، ربما بسبب عجزهم وشدة اعتمادهم علينا. والمؤكد أن الأبوين اللذين يحترمان شخصية أبنائهم ونحوهم المستقلّ عنهما، سيجدان فى الأبوة والأمومة سعادة أعظم من تلك التى يجدها فيهما الآباء والأمهات المستبدون المتمسكون بسلطانهم. فهنا مودة قد طهرتها الرقة من كل ميل إلى التسلط، وأحالتها من معدن خسيس إلى ذهب خالص، وإلى مصدر سعادة أكيد فى الحياة العائلية.

وانه لما يساعد الأبوين على التخفيف من وطأة سيطرتهما على الأبناء كثرة اهتماماتهما الخارجة عن نطاق العائلة. فالناس مثلا لا يتوقعون من الأب أن ينشغل كثيرا بأطفاله. والأطفال مع هذا ليسوا أقل حبا لآبائهم منهم لأمهاتهم. فإن نحن أدركنا حقيقة أن الآلاف المؤلفة من الأطفال تصيبهم الأمراض النفسية من جراء إفراط الأمهات فى تدليلهم والاهتمام بهم، فقد نرى من الأسلم، ومن الواجب، أن تقترب علاقة الأم بطفلها من طبيعة علاقة الأب به. حينئذ ستحرر الأم من عبودية لا لزوم لها ولا معنى.. صحيح أن الأم أقدر من غيرها على النهوض ببعض الخدمات لأطفالها. غير أنه مع نمو الطفل يتزايد عدد الأمور التى يمكن لغيرها أن يؤدّيها للطفل نيابة عنها، فيكون بوسعها بالتالى أن تستأنف نشاطها المهنى رغم أمومتها، وأن تتخلّى عن أعمال تشقّ عليها، وتفسد مزاجها، وتذهب بذكاؤها. ذلك أنه بالرغم من أهمية الأمومة فى حياتنا، فهى ليست بالعاطفة المرضية إن كانت تمثّل لدى الأم الحياة بأسرها. ولذا فإنه من صالح الطفل، ومن صالح الأم، ومن صالح الزوج، ومن صالح المجتمع معا، ألا تحوّل الأمومة بين المرأة وبين ممارستها لاهتماماتها الأخرى.

- ٤ -

المكانة الاجتماعية والسُّمعة

لا أحسب أن ثمة سعادة حقيقية في المنصب الخطير، أو في المكانة الاجتماعية المرموقة، إلا في إتاحتها فرصة أكبر أمام الإنسان الجاد أن يخرج بأفكاره إلى حيّز التنفيذ، فيفيد منها أكبر عدد ممكن من الناس . أما أن يسعى وراء هذا المنصب أو هذه المكانة لإرضاء غروره، أو نيل الألقاب والأوسمة، أو إثارة احترام العامة وحسد الأقران ورضا الأهل والعشيرة، فضرب من ضروب حماقة وإلقاء الأهدى إلى التهلكة، خاصة إن لم يكن المرء أهلاً للمنصب والمكانة.

قال أبو حفص الكرماني للخليفة المأمون: ظلمتني يا أمير المؤمنين وظلمت غسان بن عباد. قال: وكيف ذلك؟ قال: رفعت غسان فوق قدره ووضعتني دون قدرى، إلا أنك فى غسان أشدّ ظلماً. قال: وكيف؟ قال: لأنك أقمته مقام هُزء، وأقمته مقام رحمة!

ذلك أن أساس احترام الناس لصاحب المنصب الكبير هو افتراضهم (وهو افتراض قد يكون خاطئاً) أنه إنما ولى هذا المنصب لتوفر المؤهلات المطلوبة له فيه، وتمتّعه بالقدرات اللازمة لإنجاز واجباته. وكلما كان المركز أعلى درجة، ومسئوليّاته أخطر، وواجباته أهم وأكثر، قوى افتراض الناس لتمتع صاحبه بالمواهب العظيمة، فيعظم فى أعينهم، ويزيد احترامهم له وهيبته منهم.. غير أن فكرة الناس عن سعادة أصحاب المناصب بمناصبهم كثيراً ما تكون زائفة، إذ يتناسون إزراء الرعية بهم متى رأوا منهم تقصيراً أو عجزاً، وذلك العزل الذى يجعلنا نعجب من تيه

الولاية، (فهم أشبه بقوم رقوا جبلا ثم وقعوا منه، فأقربهم إلى التلف أبعدهم في الرقى)، وخطر العُجْب والزهو بالنفس، وهم الذين لو أساءوا كل الإساءة لوجدوا من المنافقين من يزكّيهم ويشهد بعقوبتهم، واضطرارهم لقربهم من السلطان إلى طاعته في المكروه عندهم، وموافقه فيما خالفهم، وتقدير الأمور على أهوائه دون هواهم. أو كما قال ابن المقفع: إن وجدتَ عن السلطان وصحبته غنى فاستغن به، فإن من يخدم السلطان بحقه يحلُ بينه وبين لذة الدنيا وعمل الآخرة، ومن يخدمه بغير حقه يحتمل الفضيحة والدنيا والوزر في الآخرة.

رأى الآخرين

غير أن معظم الناس إنما يفرحون بالمنصب الرفيع والمكانة الاجتماعية العالية لما يجلبانه لهم من احترام الآخرين.. ولست أنكر أن رأى الناس فينا يسهم إسهاماً كبيراً في تكييف قدر ما نحققه من نجاح دنيوى، وأن احترامهم إيانا ورضاءهم عنا يخففان الكثير من أعباء الحياة، ويجتنباننا بعض شرورها ومتاعبها. غير أنه لا ينبغي لنا أن نكون كالبخيل الذى ينسى الغاية من جمع المال ويركزّ جماعه على الوسيلة، فيضحى في سبيلها بما هو أهم منها وأخطر شأنًا، كالصحة ومحبة الأهل والأصدقاء.

ذلك أنه من مظاهر ضعف الطبيعة البشرية مراعاة غالبية البشر لرأى الناس فيهم، رغم أن أقل قدر من التفكير يوضح أن هذا الرأى، مهما كان، ليس فى حدّ ذاته من مقومات السعادة، وأن السعادة التى ينبغى أن يلتبسها المرء فى المقام الأول داخل نفسه، لا يمكن أن تكون فى رءوس

الآخرين.. غير أنك متى ربت على رأس كلبك هزّ ذيله طرباً، ومتى مدحك الآخرون تهللت أساريرك وابتسم ثنوك. وهو مديح نرحب به ولو كان كذباً محضاً، خاصة إن تعلق بأمر نعتز به، أو صفة نفخر بتوفرها فينا.. بل وثمة من يمرّى نفسه إن أصابته كارثة من جراء موقف منه أو تصرف له، بأن الناس أعجبوا بهذا الموقف أو التصرف وصفقوا له.

غالبيتنا إذن تميل بطبيعتها إلى الإفراط في تقييم أهمية رأى الغير فيها، وكثيرا ما تضحي في سبيله بما هو أهم منه بكثير.. وربما كان هذا هو السبب في أن حياة العزلة التي يختارها لأنفسهم بعض المفكرين - كالمرحوم جمال حمدان، أو الفيلسوف النمساوي المعاصر لودفيج فيتغنشتاين - كثيراً ما تكون السبيل إلى راحة البال، حيث أن صاحبها ينجو بنفسه من أن يكون دائماً محط أنظار الناس وموضع اهتمامهم، فيسعى إلى تكييف حياته ومسلكه في سبيل نيل رضاهم عنه، وتقديرهم له، ويصبح عبداً لرأيهم فيه، ويصرفه هذا السعى بالتالي عن حياته الروحية الداخلية إلى الزهو بنفسه.

ويختلف الزهو بالنفس اختلافاً كبيراً عن الثقة والاعتزاز بالنفس. فالثقة بالنفس هي إيمان الفرد بقيمته وبتفردّه في مجال معين. أما الزهو بالنفس فنأجم عن نجاحه في إثارة إعجاب الآخرين بصفات يهّمه أن تكون فيه.. الثقة بالنفس شأن داخلي خالص لدى امرئ يعرف قدر ذاته، والزهو بالنفس هو رغبة الإنسان في أن يصل إلى احترام نفسه بطريق غير مباشر هو خارج ذاته.

فإن شاء الفرد منا أن يضع حداً لهذا الضعف وهذه المبالغة في مراعاة رأى الآخرين فيه، فسيسهّل عليه ذلك أن يتذكر ضيق أفق عامة الناس،

وسطحية أحكامهم وزيفها، وسرعة تقلب أهوائهم، وخطئهم المتكرر فى تقييم الغير، وتفاهة تأثير هذا التقييم فىنا فى معظم الحالات، وميلهم الطبيعى إلى انتقاد الغير والطعن فيه، متى ما لم يعودوا يخشون سطوته، أو متى اطمأنوا إلى أن أقوالهم فيه لن تبلغه. كذلك فإن عليه أن يدرك هذه الحقيقة البسيطة: وهى أن وجوده الحقيقى، والمقومات الأساسية لهذا الوجود ولسماعته، هى داخله هو نفسه لا فى رأى الناس فيه.

السمعة الطيبة

ومع ذلك فإنه ما من شك فى أن للسمعة الطيبة أهميتها، خاصة بالنسبة للمشتغلين بمهن معينة كالمحاماة والطب والتجارة. ذلك أن الفشل الدنيوى فى حال فقدانها هو شبه مؤكد بسبب انصراف الناس عن التعامل معهم.. وتقوم السمعة هنا على أساس منطقى سليم، هو أن الشخصية الأخلاقية للمرء ثابتة غير قابلة للتغيير مدى الحياة.. فالتصرف الدنى الواحد - كالسرقة أو خيانة الأمانة أو الكذب - يعنى إمكان أن نتوقع من صاحبه تصرفات مماثلة كثيرة فى المستقبل.. وهذا هو السر فى أن المرء متى فقد سمعته، صعب أو استحال عليه أن يستردّها، ما لم يكن فقدان السمعة قد حدث نتيجة خطأ فى التقدير والحكم، كان تُفسّر تصرفاته فى ضوء زائف، أو كان نتيجة تشهير مغرض كاذب.

وتختلف السمعة عن الشهرة فى أن الأولى ذات طابع سلبى، والثانية ذات طابع إيجابى.. فالسمعة ليست رأى الآخرين فى صفات معينة قد تتوفر فى الشخص دون الكثيرين غيره، بل هى رأيهم فى الصفات التى يرون وجوب توفرها فيه، والتزامه الصارم بها. فإنما تعنى السمعة الطيبة إذن أن صاحبها إنسان عادى، بينما تعنى الشهرة أن صاحبها غير

عادى. كذلك فإنه على الإنسان الراغب فى الشهرة أن يجاهد من أجل تحقيقها، أما السمعة الطيبة فما عليه إلا أن يحافظ عليها وألا يفقدها. وفقدان السمعة إنما يعنى العار، فى حين لا يعنى الافتقار إلى الشهرة سوى أن الشخص عادى مجهول.

وما من أحد فى واقع الأمر بوسع أن يستهتر استهتاراً تاماً بسمعته بين الناس، وذلك بالرغم من أن تأثير رأى الآخرين فىنا هو دائماً تأثير غير مباشر، إذ أنه هو الذى يَكَيْف تصرفاتهم وسلوكهم نحونا. فنحن فى حياتنا اليومية كثيراً ما نحتاج إلى مساعدة الغير. وهذا الغير بدوره لابد أن تتوفر لديه الثقة فىنا قبل أن يقدم على التعامل معنا. وبالتالى فإن رأى الآخرين فىنا هو - بصورة غير مباشرة - كبير الأهمية بالنسبة لنا. وهو ما حدا بشيخرون إلى القول بأن «السمعة الطيبة ليست أهلاً لأن نرفع أصبعاً من أجل نيلها لولا أنها عظمة الغائدة»!

الرأى العام

كذلك فإنه لمن الصعب أن يكون الإنسان سعيداً ما لم تلتق آراؤه وأسلوب حياته رضا الأفراد الذين يعيش بينهم، أو تربطه بهم علاقات اجتماعية، وإلا عاش بميوله ومعتقداته كالطريد المنبوذ، فى حين أنه لو كان فى وسط مختلف لتقبله أفراداه بالترحيب والتشجيع.. ويمكن لثل هذه الحالة أن تتسبب فى شقاء عظيم، خاصة للشباب الذى قد يلتقط أفكاراً معينة من الكتب أو الأصدقاء، فإذا هى مرفوضة مستنكرة لدى الوسط الذى يعيش فيه، وإذا بهذا الوضع وقد تسبب لصاحبه ليس فى الألم فحسب، وإنما أيضاً فى تبدد جانب كبير من طاقته الروحية إذ يحاول الاحتفاظ باستقلاله العقلى فى وسط معادٍ له.

صحيح أن البعض قد يتمتع بدرجة من الإصرار وقوة الشخصية والاعتداد بالنفس تيسر عليه المقاومة. غير أن المؤكد أن غالبية البشر تحتاج من أجل سعادتها إلى وسط متعاطف.. وهو تعاطف يسهل على هذه الغالبية أن تنعم بدفئه متى ما تبثت منذ نعومة أظافرهما الأفكار السائدة في بيئتها، وكيفت نفسها وفق العادات والتقاليد المحيطة بها. أما الأقلية التي تشمل كل أو جُل أصحاب المواهب الفنية والعقلية فغالباً ما تأتي الانصياع والإذعان. وقد يولد الشخص وينشأ في بلدة صغيرة، أو في مجتمع تقليدي، فيجد نفسه منذ صباه محاطاً بعداوة ضارية تجاه كل ما هو ضروري للتمييز العقلي.. إن أقبل على مطالعة الكتب الجادة احتقره أقرانه من الصبية، وحذره المدرسون من خطورة مثل هذه الكتب. وإن اهتم بفن من الفنون ظنه الصبية الآخرون ضعيفاً مفتقراً إلى الرجولة. وإن اختار لنفسه بعد الدراسة مهنة لا تحترمها بيئته قال معارفه إنه إنما يسعى إلى المخالفة كي يعرف، أو إنه فتي شاذ، وكرروا في مسامعه أن ما ارتضاه أبوه وأجداده لأنفسهم كئيل بأن يرضيه ويكفيه. وإن انتقد معتقدات أبويه وجد نفسه وقد وقع في ورطة كبيرة.. لذلك كانت سنوات المراهقة في حياة معظم عظماء الرجال والنساء سنوات شقاء عظيم، ففى حين يعتبرها أقرانهم العاديون زمن المرح واللهو.. فهم ينشدون فى تلك السنوات شيئاً جاداً يفتقدونه فى آبائهم ومعاصريهم، وفى الإطار الاجتماعى الذى صادف أن وجدوا فيه. وتكون نتيجة معاداة محيطهم لهم اضطراب الكثيرين منهم إلى إخفاء آرائهم وميولهم معظم الوقت عن معظم الناس، وأن يتميز سلوكهم بالتهيب والوجل.

والمصيبة هى أن هذا التهيب والوجل يؤدىان فى أغلب الحالات إلى تفاقم الوضع لا إلى علاجه. فالرأى العام يميل دائماً إلى أن يكون أشد

استبداداً وتعنتاً وأثقل وطأة بالنسبة لمن يرى فى وضوح أنهم يتهيّبونه ويخشونه ويعملون حساباً له، منه بالنسبة لغير المكترئين به.. فكما أن الكلب ينبج نباحاً أعلى ويكون على استعداد أكبر لأن يعضّك متى أحس بأنك تخافه، ولا ينبحك أو يهاجمك إن أبديت احتقاراً له أو عدم مبالاة به، فكذلك البشر، يرون فيك صيداً ثميناً متى أدركوا أنك تهابهم، ولو أنك أبديت لهم فى وضوح عدم اكتراثك برأيهم فيك، لشرعوا على الفور فى الشك فى قدراتهم وصحة آرائهم، ومالوا إلى أن يتركوك وشأنك.. غير أن ثمة شرطاً هاماً: وهو أن يكون عدم اكتراثك حقيقياً وطبيعياً ونابعاً من شخصيتك، لا أن يتخذ شكل العناد والتحدى الصريح. فإن تحقق هذا الشرط فالغالب أن تلقى آراؤك وميولك القبول فى نهاية الأمر، حتى فى أشد المجتمعات محافظة وتزمتاً، إذ سيعتبرك الناس عندئذ شخصاً شاذاً غريب الأطوار ولكن لا بأس بك، ويسمحون لك بما لن يغتفروه لغيرك.. وتفسير ذلك هو أن السرّ فى معارضة الناس للخروج عن تقاليدهم ومعتقداتهم هو أنهم يعتبرون هذا الخروج انتقاداً لهم هم، واحتقاراً لأنفسهم. ولذا فهم أميل إلى أن يغتفروا لك «زلّتك»، إن كان خروجك بصورة غير عدوانية، وبطريقة ودية وطبيعية تؤكد بها، حتى لأغلبهم، أنك لا تقصد إهانة أحد، ولا تنتقد سلوكهم أو تنكر حقهم فى اختيار ما شاءوا من المعتقدات أو أساليب العيش.

المقاومة والإذعان

إن الخوف من الرأى العام، والإذعان له، هما كائى نوع آخر من الخوف أو الإذعان، يضرّان بنمو الشخصية، ويحولان دون ازدهارها، ودون تحقيق الفرد لذاته وبلوغه هدفه، ويضعان العراقيل فى طريق حرية الروح التى هى من شروط السعادة الحقة. ذلك أنه من المهم للغاية من

أجل تحقق السعادة أن يكون أسلوب حياتنا نابعاً عن تكويننا النفسى، وعن مقوماتنا ونزعاتنا، لا عن أذواق ورغبات من صادم أن كانوا جيراننا أو أقاربنا.. نحن بطبيعة الحال لا ندعو الشباب إلى الاستخفاف بالرأى العام عمداً. غير أن عدم الاكتراث الحقيقى به هو مصدر قوة ومصدر سعادة فى آن واحد. والمهم هنا - وكما سبق القول - أن يكون المرء طبيعياً ومخلصاً فى اتباع ميوله وتنميتها متى لم يكن من شأن هذه الميول الإضرار بالآخرين أو بالمجتمع. وإنه لمن المؤكد أن كثرة الأفراد ممن يفضلون صقل طبائعهم وإنماءها على الانصياع والإذعان لرأى الآخرين، من شأنها أن تجعل المجتمع أكثر بهجة وأجمل منظرًا من المجتمع الذى يتصرف كافة أفرادها على نحو واحد. فهنا شخصيات نامية متنوعة المشارب مختلفة الاتجاهات والمواهب، تجعل من تعرفنا بأناس جدد متعة عظيمة لا نجد لها فى مقابلة أناس هم نسخ طبق الأصل من أولئك الذين صادفناهم من قبل.

على الشباب إذن ممن يجد نفسه غريباً أو طريداً أو منبوذاً فى بيئته أن يحاول الانخراط فى مهنة تهينى له فرصة الالتقاء بمن يشاركونه ميوله وأفكاره، حتى إن كان الدخل منها بسيطاً.. وعليه أن يتذكر أن الصراع مع البيئة المحيطة وإن كان مؤلماً وكفيلًا بأن يثير له المشكلات، فهو ليس بالمأساة التى ينبغى عليه أن يتجنبها بأى ثمن.. فالبيئة متى كانت غبية قاسية، كان فى الخروج عليها دليلاً على الجدارة والقيمة الحقّة. قد يكون من الحكمة أو من الواجب أن ننصاع للرأى العام تجنباً للسجن أو للموت جوعاً. غير أنه فيما عدا ذلك فإن الإذعان طوعية لاستبداد لا مبرر له ولا سند من المنطق، كفى بأن يؤثر فى سعادتنا من جميع الوجوه.

إننا نلمس فى المجتمعات كافة - غربيها وشرقيها - قدراً أكبر مما ينبغى من الانصياع للرأى العام وآراء الآخرين، سواء فى الأمور الكبيرة أو الصغيرة. والشباب بالذات هم أكثر الناس معاناة فى هذا الصدد، خاصة قبل أن يتمكن من أن يثبت مواهبه وقدراته فهو كثيراً ما يكون تحت رحمة أناس يرون أنفسهم أقدر منه على الحكم على الأمور بفضل تجاربهم الأوسع فى الحياة، فيأبون فى غضب و صلف أن يخالفهم الشباب فى الرأى. وقد يكافح الشباب ويناضل ويقاوم طويلاً مثل هذا التعتن والصلف. غير أنه حتى إن أنتصر فى النهاية، تبين أن القدر الكبير من طاقته قد تبدد خلال تلك المقاومة، وأن شخصيته باتت من جرائها تتميز بنوع من المرارة.

قد يذهب البعض من أجل التهوين من شأن الأثر المدمر لاستبداد البيئة والوسط المحيط بالنابهين إلى أن العبقريّة تفرض نفسها دائماً فى النهاية. غير أن هذا القول فى زعمنا غير سليم.. صحيح أن كل العباقرة الذين نقرأ عنهم فى التاريخ نجحوا فى فرض أنفسهم وتغلبوا على ما أقيم فى طريقتهم من عقبات. غير أننا نسأل: ما أدرانا أن حشداً آخر من العباقرة لم ينهاروا إزاء عداوة الوسط المحيط بهم، ولم يجدوا سبيلاً غير الإذعان والرضوخ للضغوط التى جابهوها فى شبابهم، فلم يكن بالإمكان أن نسمع عنهم! ثم إن الأمر لا يتصل بالعبقرية فحسب، وإنما يتعلق أيضاً بالمواهب التى تحتاج مجتمعاتنا إليها، والتى قد لا تجد لنفسها منفذاً فى بيئة معادية متعنتة، أو تجد لها منفذاً ولكن بعد صراع يصيب صاحبها بالمرارة والجراح، ويبدد شطراً من طاقته الإبداعية.

لهذا كله وجب علينا أن نخفف من ضغوطنا على الشباب، وأن نسمح لهم بقدر أوسع كثيراً من حرية الاختيار لأنفسهم حتى لو أخطأوا أو ظنناهم مخطئين.. أما عن الشباب أنفسهم فإنهم يخطئون خطأ فاحشاً إن هم أذعنوا لضغط البيئة فيما يعتبرونه أموراً حيوية بالنسبة لهم، وإن هم رأوا تهديد الشيوخ وتقريرهم سبباً كافياً للتخلي عن العزم.. قد يذكرون للشباب أن النشاط الذي يريد أن يمارسه غير محترم، أو غير لائق بمركز أسرته الاجتماعية، أو غير مريح، وقد يهددونه بالتهرب منه، أو يحذرونه من أنه سيندم بعد بضعة أشهر أو بضعة سنين، أو يذكرونه بما حدث لفلان وفلان.. غير أن على الشاب أن يذكر دائماً أن الأمر إنما يتعلق بأمر هو أهم بكثير من رضا الوسط المحيط به والرأى العام وأفكار الآخرين عنه. هو أمر يتعلق بازدهاره ونموه الحر الطبيعي وسعادته. وبوسعنا أن نؤكد له أن الغالب إن هو أبدى العزم والإصرار أن يرضخ هذا الوسط المعادى ويقبل الأمر الواقع بأسرع مما يتخيل أفراد هذا الوسط، أو يتخيل الشاب نفسه.

الشُّهرة : ما لها وما عليها

لاشكَّ في أن قيمة المرء الحقيقية ليست في إنتاجه الفعلي بقدر ما هي في قوة القريحة ورفاهة الحس اللتين مكنتاه من إنتاج ما أنتج.. هي في نفسه وملكاته لا في المظهر الخارجى لهذه الملكات.. غير أنه لاشكَّ أيضاً في أن إعجاب الناس به وبإنتاجه هو من الدواعى الإيجابية لسعادته، وفي أن شهرته ونجاحه من شأنهما أن يطمئناهما على أنه يمتلك موهبة حقيقية يجدر به استغلالها وإنماؤها وتعهدها بالرعاية، في حين قد يزعزع الفشل من ثقته في وجود تلك الموهبة، فيتوقف عن ممارستها.. فالثقة بالنفس هي عماد المهارة وشرط المقدرة. والإنسان عادة يفتقر إلى القدرة على أن يحكم بنفسه على مدى جودة ما ينتجه ما لم يلمس ردَّ الفعل الإيجابى أو السلبى لدى الجمهور والنقاد.. والعين، كما قيل، لا ترى نفسها إلا بمرآة.. وإذ أن العالم زاحر بالأناس العاديين غير المتميزين، فإن الشهرة العظيمة لا يمكن أن تمنى إلا أن صاحبها فرد متميز خارق للعادة، وأنه من بين الآلاف التى يصادفها فى الطريق، أو الملايين التى يسمع بوجودها، ذو قيمة فذة ترفعه فوقها، وتفرقه عنها. ولا بد أن إدراكه لهذه الحقيقة سيجلب إلى نفسه الرضا والسعادة، خاصة إن كان العمر قد تقدّم به فأفقدته القدرة على الاستمتاع بأمور كثيرة مما يستمتع به الشباب.. حينئذ تضحى الشهرة إحدى متعه المحدودة، وتعويضاً لا بأس به عما بدأ يعتري شيخوخته من آفات، ومصدر رزق حين تضعف قواه الجثمانية عن تحصيل الرزق.

هذا إلى أن الناس عادة إنما تحكم على الأشخاص وأفعالهم على ضوء النتيجة وقدر النجاح. وعندها أن الفاشل لابد سئ، والناجح لابد جيد. فالحظ السعيد كثيراً ما يكون لازماً للإعلاء من شأن المناقب والفضائل.. وها هو كل من يوليوس قيصر وكاتيلين قد اعتزم نفس الأمر، وبيت نفس الخطة والمؤامرة ضد الدولة، وكان لدى كل منهما نفس القدر من الموهبة والشجاعة. غير أن نجاح قيصر في إنجاز خطته قد صيره بطلاً تسير بذكره الركبان، في حين أدى فشل مؤامرة كاتيلين إلى الحديث عنه في كتب التاريخ باعتباره خائناً غيباً.. كذلك فقد ثار البحارة على كريستوفر كولومبوس إبان رحلته البحرية، ورفعوا راية العصيان، وطالبوه بالعودة إلى أسبانيا، فاستمهلهم متوسلاً ثلاثة أيام يقفل بعدها عائداً إن لم تبد خلالها أرض في الأفق. ثم إذا بهم في مساء اليوم الثالث وقد لاحت لآعينهم أرض العالم الجديد. ولو أن البحارة أبوا إمهاله غير يومين، وعادت السفن إلى أسبانيا وقد خابت الآمال المعقودة عليها، لذكر الناس كولومبوس باعتباره حالماً واهماً، قد خدع الملك فرديناند وغرر به، وبدد الأموال الطائلة وخاطر بأرواح بحارته، في حين يذكرونه الآن بفضل نجاحه على أنه المكتشف الأعظم، والبطل الفرد.

فالدنيا إذن إذا أقبلت على أحد أعارته محاسن غيره، وإن أدبرت سلبته محاسن نفسه.. فإن كانت جودة إنتاج المرء هي في بعض الأحيان سبب شهرته، فإن شهرته هي في كل الأحيان سبب الاعتراف بجودة إنتاجه. ولو كان الفشل نصيبه لتصيّد الناس لنفس هذا الإنتاج العيوب، ويبرّروا بها فشله وخمّلوا ذكره.



وقد تضاربت الآراء بصدد تأثير النجاح والشهرة في مستوى إنتاج المرء: فمن قائل (كهيمنجواي) إن النجاح الذّ أعداء الأديب: «فالكتاب الجيدّ يأتي له بالمال. وما يأتي المال حتى يرفع الكاتب به من مستوى معيشته. وما يرفع مستوى معيشته حتى يبدأ هو وزوجته وأولاده في اعتياده، فيحرص كل الحرص على ألا ينخفض. ويؤدي حرصه ذلك إلى السرعة والإفراط في الكتابة. والإفراط والسرعة في الكتابة يؤذيان إلى الإسفاف وهبوط المستوى. وإذا يهبط مستوى كتاباته يخمد حماس النقاد والقراء. ويخمد هذا الحماس تهتز ثقة الأديب بنفسه».

ومن قائل (كسمر ست موم) إن النجاح لا يُقصد الأديب وإنما يُصلحه. «وهو لا يؤديّ به إلى الغرور وتعظيم الإحساس بذاته ورضائه عنها، بل هو يعزّز من السمات الطيبة في خلقه، ويُضفي عليه تواضعاً وتسامحاً واعتدال مزاج، في حين يميل به الفشل إلى أن يضحى قاسياً شديداً الإحساس بالمرارة، عظيم الحسد لغيره من الكتاب الناجحين، دائم السخط على ما حوله ومن حوله».

وتضارب الآراء هذا راجع في حقيقته إلى اختلاف طبائع الناس اختلافاً يجعل من الأمر الواحد ضاراً بهذا ومفيداً لذاك. فمن المؤكد أن النجاح المبكر والشهرة لم يضرّاً بأدب تولستوى، أو دوستوفسكى، أو جوته، أو تشارلس ديكنز، أو توماس مان، أو آرثر ميلر. كما أنه من المؤكد أنه أفسد فرانسواز ساجان، وشولو خوف، وسكوت فيتزجيرالد، وتينيسى ويليامز، وجون أوزبورن.. كذلك فقد يؤدي فشل فنان معين في إحراز النجاح والشهرة إلى إحساسه بالقهر، وفقدانه الثقة بنفسه، ثم إلى إحجامه كلية عن مواصلة الإنتاج؛ وقد لا يؤثر هذا الفشل في إيمان

فنان آخر بقدراته وقيمة ما ينتجه ، فينتج لنفسه أو لأجيال تالية هو على ثقة من أنها ستكون أقدر على تقييم فئه تقييما عادلا .

فالقاعدة فى هذا الشأن إذن أنه لا قاعدة، وأن الأمر يتوقف على شخصية المرء وطبيعة تكوينه. فإن كان قد قيل إن الغراق يقتل المودة السطحية ويزيد المودة الصادقة توهجا، فكذلك النجاح والشهرة قد يقتلان المواهب الصغيرة والزائفة، ويصقلان الموهبة الحقيقية الضخمة.



فأما عن صاحب الموهبة الضعيفة أو الزائفة، فهو قد يخرج على الناس بكتاب يلتقى بينهم رواجاً عظيماً، ولا يكون لهذا الرواج والنجاح أدنى صلة بعبقرية أو نبوغ. فقد يكون حاوياً لأسرار سياسية لا يعلمها غيره، أو وصف رحلة إلى أقطار بعيدة لم تطأها أقدام غالبية قرائه. وقد يكون كتابه جنسياً فاحشاً، أو فكاهاً رائقاً، أو بونيسياً شائناً، أو عاطفياً رومانسياً يستهوى قلوب المراهقين والمراهقات، أو شديد التعاطف مع تيار سياسى أو دينى له شعبية كبيرة مؤقتة.. حينئذ يلمع اسم الكاتب، وتزيد دور النشر من نسبة مكافآته، وتستجلبه الإذاعة للحديث فيها، والتليفزيون لكتابة التمثيليات المسلسلة له، وتستكتبه الجرائد والمجلات، ويدعى للاشتراك فى ندوات، وإلى إلقاء المحاضرات، وتُجرى معه المقابلات الصحفية، وتُسند إليه كتابة عمود يومى أو مقال أسبوعى، ويؤخذ رأيه عند وقوع حدث، ويُعطر بالأسئلة عن نمط حياته وأسلوب معيشته، وعن ألوان الطعام التى يهواها، والأغاني التى يفضلها، وعلة غرامه بالقطط، وسبب كراهته لارتداء رباط العنق.

وهو إذ يُقبل على كل هذا في نشاط وهمّة، إنما يحفر قبره بنفسه..
فالساعات التي كان يقضيها في الاطلاع والقراءة تتناقص فتتضاءل فتندثر.
والمال الذي بات يُخدق عليه قد نقله من الريف أو مدن الأقاليم إلى
العاصمة، أو من وسط شعبي يفيض حياة وكان مصدر إلهام كتاباته الأولى
إلى صالونات الأغنياء والأدباء من أمثاله. وقد تعرّف بسبب نجاحه بعدد
كبير من النقاد والكتاب، وأنشأ معهم علاقات شخصية، فباتوا مضطرين
اضطراباً إلى امتداح كل كتاب جديد له، أو الإحجام على الأقل عن بيان
نقائصه وعيوبه، فيزيده مديحهم الذي يحسبه مخلصاً غروراً واطمئناناً إلى
استمرار موهبته.

وَعَدُّ النَّاسُ ضَرْطَهُ غِنَاءً

وقالوا إن فساً: قد فاح طيباً

وإذ أن المجلات والصحف ودور النشر وسائر وسائل الإعلام يهتمها
شهرة الكاتب قبل جودة ما يكتبه، فإنها تظل على إلحافها في طلب
المقالات والتمثيلات والكتب إلحافاً يوهمه بأنه لا سبب وراءه غير
عبقريته. وعموده اليومي في الصحيفة يملأ، ومقاله الأسبوعي في المجلة
يُكتب، وإن لم يكن قد بقي في عقله أفكار جديدة. والبئر لا يبدّ من
استخراج الماء منها ولو كانت فارغة. وأصحاب الصالونات من الأغنياء
يتهافتون على دعوته لإضفاء البريق على سهراتهم، فيتبدّد وقته وتتشتّت
طاقته الذهنية والروحية بالتردد عليها لسماع الثناء على آخر ما كتب،
وأحدث ما نشر.. وثمة نساء وفتيات قاصرات العقل يرسلنه أو يستشرنه
أو يتزاحمن عليه، ويرين فخراً أن ينشئن معه علاقة جنسية.. كل هذا

وغيره أمور من شأنها أن تقتل الموهبة الصادقة، بلُة الموهبة الزائفة، فإذا كل كتاب هو أضعف مما سبقه، وكل مقال أتفه من سلفه، حتى إذا ما صار كقشرة الليمونة قد اعتُصر منها كل ما فى جوفها، تعجّب وتآفف، وتآلم وتذمر، إذ يرى الجمهور وقد تحوّل عنه فجأة إلى كاتب صاعد ونجم جديد، وإذا مكانه فى صندوق القمامة وهو الذى كان قد أوشك أن يصبح على ثقة من أنه فى زمرة الخالدين.

ولاشك فى أن كل هذا كان وراء قوله أنتونى ترولوب الشهيرة إن النجاح هو بمثابة السمّ الذى ليس من المصلحة تناوله إلا فى أواخر العمر، وحتى فى أواخر العمر فإنه لا ينبغي تناوله إلا فى جرعات صغيرة.. فالكهل والشيخ أبصر من الشباب بالأمور على حقيقتها، وأصعب انبهاراً بالمتقلب الفانى، وأقل تمرّساً للإصابة بالزهو أو بالإفراط فى تقييم متاع الغرور. فإن أخذنا فى الاعتبار ذلك الميل لدى النقاد إلى أن يلمعوا دور يوحنا المعمدان الذى بشرّ بقدوم المسيح، والتهليل الأحق لكاتب جديد شاب باعتباره «أمل المستقبل»، و «أعجوبة الزمان» و «خليفة طه حسين وأحمد أمين»، أدركنا مدى خطورة خمر الثناء على عقول الشباب الغرّ..



وأما عن أصحاب المواهب الحقيقية، فما من أدنى شك فى أن الشهرة ستكون من نصيبهم، وأنها ستلازمهم بالضرورة ملازمة الظل للإنسان. غير أنها كالظلّ تسبق الإنسان أحياناً وأحياناً تتبّعه. وقديماً قيل إن

معبدها يحوى أمواتا لم يدخلوه حتى ماتوا، وأحياء سيُطردون منه فور وفاتهم.. فالفنان المتميز الفحل لا مفرّ من أن يستثير عند أصحاب المواهب الزائفة مشاعر الحسد والغيرة والخوف والكراهية. فهو كالشمس إذا طلعت «لم يبدُ منهن كوكبٌ» على حدّ تعبير النابغة الذبياني. وإذا تصفّر وجوههم وتنقبض صدورهم إزاء كل إنتاج متميز يصدر منه، يرون السلامة فى التحالف والتآزر من أجل هدمه، والتضاfer على تحقيره وإخماد صيته. وقد يلجئون إلى سلاح الصّمت للحيلولة دون نيله الشهرة التى ستودى بشهرتهم، فلا يذكرون إنتاجه بكلمة، ويحرصون على ألا يرد ذكر اسمه على ألسنتهم، فى الوقت الذى يشيدون فيه بكل إنتاج يصدر عن أمثالهم من أصحاب القرائح العقيمة الجذبة، ويمسح بعضهم جوخ بعض كما تتهارش الحمير، مطمئنين إلى أنه لا خطر على شهرتهم من شهرة التافهين الأراذل.

على أن تأخرَ شهرة المجيد الموهوب هو فى الغالب خير له وإن كرهه وتألّم له. فهو بتأخرها قد تجنّب لسنوات طويلة ما تحدّثنا عنه من أخطار الثروة والغرور، والصالونات والنساء، وهجره لمصدر إلهامه وبيئته الطبيعية.. لازل وقته ملك يده، وقراءاته وساعات تفكيره وتأملاته لم يمتنع منها شيء.. كذلك فإنه ما من شيء ذى قيمة حقيقية إلا استغرق نموّه زمناً طويلاً. أو كما قال ابن حزم: «أسرع الأشياء نمواً أسرعها فناء، وأبطؤها حدوثاً أبطؤها نفاذاً، وما دخل عسيرا لم يخرج يسيراً».. إن تأخرت شهرة الفنان فى حياته فالأرجح أنها ستدوم مدة أطول بعد وفاته :

يموت ردىء الشعر من قبل أهله

وجيّد يبقى وإن مسات قائله !

فهو إن تأتى فإنما ليُتَيّن. «قال بعض الشعراء لبعض: أنا أقول كل ساعة قصيدة وأنت تقرضها فى كل شهر. قال: لأنى لا أقبل من شيطانى مثل الذى تقبله من شيطانك!». وإن كتب فإنما يكتب للأجيال كافة والأمم كافة، لا لجيله وحده وأمه وحدها. أما من جاءت شهرته الزائفة نتيجة تناوله لموضوعات الساعة، أو لإرضاء ميول عارضة واتجاهات سياسية أو دينية مؤقتة، فإنما شهرته أشبه شىء بالأعشاب والنباتات الصحراوية التى تنمو سريعاً وتذوى سريعاً ويسهل على الطفل الرضيع اقتلاعها، أو بالورقة الخفيفة ليس بوسع أقوى ذراع لناقذ أو ناشر أن يطيرها مسافة بعيدة.

أضف إلى ذلك أن تأخر الشهرة والنجاح سبب فى ألا يتجمل المرء الإنجاز، إذ ليس هناك ما يستحقه ويدفعه إلى الإنتاج ما لم تجل بخاطره فكرة جديدة ذات قيمة. وهو فى العادة إنما ينتج لإرضاء حافز داخلى قوى يحفزّه إلى التعبير عن ذاته، لا لإرضاء الجمهور:

على نحت القوافى من مقاطعها وما على لهم أن تفهم البقر!

وهو يدرك أن النائحة الثكلى ليست كالنائحة المستأجرة، وأن الكلمة إذا خرجت من القلب وقعت فى القلب، وإذا خرجت من اللسان لم تجاوز الآذان.. لذلك فهو حريص كل الحرص على كمال الأداء، واتقان الصنعة. ليس ثمة أمامه عمود يرمى عليه أن يملأ سطوره بأى كلام، ولا وراءه رئيس تحرير مجلة يستحقه الإنجاز كى يلحق

بالعدد الأسبوعي، أو مدير إذاعة يستعجل حلقات التمثيلية لتسجيلها قبل ظهور هلال رمضان. وقد قضى جوته فى كتابة «فاوست» اثنين وستين عاماً. ولو أنه كان ينشرها فى حلقات فى مجلة، أو استعجله مدير الإذاعة لتسجيل المسلسل، لكان من المؤكد أن يُحرم الأدب العالمى من إحدى روائعه.



ومع ذلك.. فإن كان النجاح قد وفر للفنان سعة فى العيش، ونقله بذلك من حيّه الشعبى أو الريف وسكانها إلى حىّ أنيق فى العاصمة، وتحولّ عن استخدام الحافلات العامة المزدحمة إلى ركوب سيارة خاصة به، وتضاءلت صلاته بطبقات الشعب المختلفة وكادت تقتصر على الأثرياء والفنانين، فلاشك أيضاً فى أن الضيق فى جانب يصاحبه انفراج فى جانب، وانغلاق باب هنا يواكبه انفتاح باب هناك.. فهو الآن قد أضحى بفضل الشهرة والنجاح يخالط أناساً من طبقة الأدباء والفنانين والمثقفين ذوى الأفكار والأحاديث والمساجلات التى من شأنها أن تغذى فكره وفنه.. وهو يقابل فى أمسية واحدة يقضيها فى أحد صالونات الأغنياء مجموعة من المشاهير من نجوم السينما والمسرح والشعر والموسيقى والرسم والنحت والسياسة والدبلوماسية والاقتصاد، فتنمو بقلبيهم معارفه، ويتسع بمحاورتهم نطاق اهتماماته، وينفتح أمامه بالاستماع إليهم باب من الخبرات الجديدة التى لم يكن له عهد بها. وما هم المعجبون به يكتبون إليه أو يحادثونه فى لقاءاتهم به عن أخص خصائص حياتهم، وأسرار قلوبهم، مما لا يُغضون به إلى أقرب المقربين إليهم من أصدقائهم وذويهم.

ثم ما هو يُدعى إلى مؤتمر للكتاب فى هذه الدولة الأجنبية أو تلك، أو إلى إلقاء محاضرات فى جامعة أوروبية أو أمريكية، وقد يسعى حاكم آسيوى أو إفريقى إلى الاجتماع به، فإذا به وهو ابن الحاج عبد المقصود عمدة إحدى قرى الصعيد، وقد نزل ضيفاً على كاسترو، وتداول ساعة مع الملك حسين، وجال بين الآثار الإسلامية فى سمرقند وطشقند، ودخل فى نقاش مع أستاذة جامعة أوكسفورد وطلبتها، وتناول العشاء على مائدة هافيل أو مكسيم رودنسون.

فإن كان كل هذا قد استغرق الكثير من وقته، وأثر فى قدر قراءاته، فهو بالتأكيد قد أثرى حصيلة تجاربه، ووسّع من أفقه ومفاهيمه عن الحياة والعالم حوله، وقضى على خطر أن يتحوّل إلى دودة كتب، أو راهب فى صومعة.



وصحيح أن الشهرة والنجاح يواكبهما فى العادة إكثار من الإنتاج وسرعة فيه. غير أن السرعة ليست بالضرورة مدعاة إلى الخطأ من قيمة الإنتاج مادام العقل خصباً زاخراً بالأفكار. وإنما تمثل السرعة خطورة حين تتحوّل إلى عجلة، ويكون الإكثار من الإنتاج ضاراً حين يتخذ صورة تجريف للعقل المنهك. وبوسعنا أن نذكر عشرات الأمثلة لأدباء عظام كانوا شديدي السرعة فى الكتابة، (دوستوفسكى، بلزاك، تولوب، ديكنز)، وكانت السرعة عندهم ناجحة عن الرغبة فى رفع مستواهم المعيشى، وأنتجوا مع ذلك كتباً خالدة لم يعتورها خلل أو نقص.. والإنتاج الفنى من أجل المال ليس عيباً فى حدّ ذاته كما يزعم تولستوى، اللهم إلا إن كان

الاشتغال بالقضاء أو الدبلوماسية أو الجندية أو الزراعة أو غير ذلك لقاء أجر عيباً. وثمة عدد من الفنانين ممن قضى الفقر على مواهبهم أكبر من عدد أولئك الذين قضى عليهم الغرور، أو أضربهم الثراء الفاحش.

هذا وقد يكون تأخر الشهرة والنجاح مدعاة للاسترخاء، وسبباً فى الركون إلى الكسل. إذ ليس لدى الكاتب أو الفنان المغمور حافز يدفعه إلى المواصلة والإنتاج المتدفق، مادام لا يرى جمهوراً ينتظر إنتاجاً جديداً له، أو ناشراً يستحثه، أو رئيس تحرير يقف له بالمرصاد. وما من أحد بوسعه أن ينكر أن المثابرة والعمل المتواصل يساعدان على صقل المواهب وإتقان الصنعة، وأنهما لازمان للفنان لزوم التدريب المستمر للرياضي.

غير أن أبرز النقاط الإيجابية فى الشهرة والنجاح فى رأى هو حرص الفنان بسببهما على ألا يهبط مستواه، وخشيته الدائمة، والمؤلة المأساوية أحياناً، من أن يأتى إنتاجه الجديد دون إنتاجه السابق. فهو دائماً فى خوف على موهبته من أن يعتريها نقصان، وفى شك من قدرته على أن يجعل إنتاجه الجديد فى مستوى إنتاجه الأخير الممتاز. وهو يعلم أن النقاد والجمهور بصفة عامة لديهم ميل خبيث إلى أن يحكموا بضعف الإنتاج الحديث بالمقارنة بالإنتاج القديم الذى هلكوا له وأشادوا به.. والفنان يدرك أن الجمهور متقلب هوائى، وأنه وقد كان بمقدوره أن يرفعه إلى السماء، على استعداد دائماً، وفى أية لحظة، لأن يخسف به الأرض، وأن ينقل إعجابه وتهليله إلى غيره.. فالنجاح إذن هو خير ضمان لمحاولة الفنان أن يُبقي فنه على مستواه الرفيع، وأن يُشَلِّ يده عن الإسفاف، وعن الاستهانة بجمهوره والاستخفاف.

- ٦ -

مُعَايشَةُ الْوَاقِعِ الْحَيِّ

يلجأ الكثيرون منا وقت الحزن والأزمات إلى إيجاد صلة بماض هو في زعمهم «مجيد»، أو - على الأقل - «آمن هادئ مستقر».. ولا ننكر أن الانغماس في الماضي يخفف من حدة الضغط العصبي (كما يخفف إخفاء النعامة لرأسها في الرمال من حدة توترها)، ويلهى - كما تلهى المخدرات متعاطيها - عن الواقع، ويريحنا ولو لساعات من التفكير في حاضر دائم التغيير ولا شكل له، وفي مستقبل لا نطمئن إلى الصورة التي سيكون عليها. غير أنه من المؤكد في رأبي أن هذه الظاهرة - ظاهرة الحنين إلى الماضي - تنطوي على مخاطر هائلة، أخفها الميل إلى تزييف التاريخ، والافتقار إلى الأمانة في تسجيل أحداثه أو تخيلها، واتخاذ موقف من شخصياته هو أشبه شيء بعبادة الأسلاف التي عرفها أهل العصور السحيقة. أما الخطر الأكبر فيكمن في أن الاستغراق في الماضي والحنين إليه ينتقصان من قدرتنا على الإحساس بالسعادة الحقة، إذ يشلان من إمكانية مواجهة الحياة المعاصرة، والتصدي لمشكلاتها بمحاولة جادة نشطة لإيجاد الحلول، والإعداد للمستقبل، ويعطل من القدرة على الخلق والإبداع.

قَدَمُ الظَّاهِرَةِ:

ولا تقتصر هذه الظاهرة وهذا البكاء على الأطلال على زمننا. فقديمًا عبرَ امرؤ القيس والمتنبي، وفيرجيل وبتراكر، بل وهوميروس نفسه، عن

الحنين إلى ماضٍ «مجيد سعيد»، يختلف في كل مظهره عن حاضره عن «التافه التمس»، وإلى سلف «صالح» يتمتع بكل ما يقتدر إليه معاصروهم من «القوة والشهامة، وكرم الخلق والسجايا». وثمة نص قرعوني يشكو فيه صاحبه من أن شباب زمنه لم يعد يبدي من الاحترام للآباء ما كان يبديه الشباب في الماضي كما أن ثمة امرأة عربية في القرن الأول الهجري سئلت عن سبب لزومها دارها، فأجابت بقولها: «قد كنت أخرج والناس ناس، أما وقد فسد الناس فلزوم بيتي أجدر بي»^١.

فإن كانت ظاهرة الحنين إلى الماضي والتهرب من معاشة الواقع الحيّ قديمة قدم الماضي نفسه، فإنه لم يحدث في التاريخ كله أن اتخذت مثل هذه الصورة الروائية التي اتخذتها خلال نصف القرن الماضي، ولا كان الناس قبل الآن يستشعرون مثل هذه الرغبة العارمة في الهرب من الحاضر، أو أقل تحرجاً من التصريح بهذه الرغبة، وأكثر وضوحاً في التشدق بسحر الماضي وبريقه. وقد ساد بين الناس الاعتقاد بأن كل قديم هو بالضرورة ثمين نفيس، وارتبط الماضي في أذهانهم بالبساطة والراحة والإحساس بالأمن والحياة الطبيعية السهلة، مما يخالف وطأة الحاضر وتعبه. ولو أن الناس سئلوا أي زمان يفضلون العيش فيه لذكرت غالبيتهم أي عصر عدا عصرهم. وقد اتسع مؤخراً نطاق الماضي الذي يحنون إليه وامتدّ. فبعد أن كانوا يحنون إلى ما قبل عشرين قرناً أو عشرة، أو ما قبل قرنين أو قرن واحد، باتوا الآن ينتهدون لذكرى الفترة ما قبل أربعين أو ثلاثين عاماً فحسب، ويقبلون على اقتناء ما يذكرهم بتلك الحقبة.. بل إنه حتى الحقب القبيحة بيئة السوء، قد بات لها الآن سحر ورونق. فالكتيرون من شيوخ إنجلترا مثلاً يحنون إلى الزمن

الذى كان النازيون فيه يقصفون بلدكم بالقنابل باعتباره زمناً سعيداً،
ويذكرون ما كانوا يتحلون به وقتها من إيمان قوى، وثقة فى انتصار الحق
على الباطل، وقدرة بطولية على احتمال الآلام والمشاق..

ذلك أنه من السمات الجوهرية لمشاعر الحنين إلى الماضى أنها تستبعد
دائماً العناصر البغيضة المؤلمة من الذكريات. فذكرياتنا عن الطفولة غالباً
ما تتجاهل أمراضها ومتاعبها وشجاراتها العائلية. أما الآلام فطابع يومنا
هذا، وحاضرنا هذا.. وقد يختار بعضنا الاستغراق فى ذكريات زمن
قريب، كالطفولة أو الشباب، وقد يختار البعض استعادة ذكرى زمن
سحيق، كمصر الإغريق أو عهد الخلفاء الراشدين. وكثيراً ما نردّد القول
بأن الحياة فيما مضى كانت ذات معنى وطعم وهدف، وأن الناس «كان
فيهم الخير»، والعلاقات الإنسانية تتسم بالدفء والتراحم والتعاطف. وما
السّر فى إقبال السياح على التقاط الصور الفوتوغرافية وشراء ما يذكّرهم
برحلاتهم، سوى إدراكهم أنهم حين يتأملونها فيما بعد، سيتخيلون أنهم
كانوا يشعرون وقت التقاطها أو شرائها بسعادة لم يكونوا فى الحقيقة
يشعرون بها.. وقد قيل: «انتظر حتى يصبح الحاضر ماضياً، وسترى
كيف كنت سعيداً وقتئذ»..



وقد شاعت هذه الظاهرة فى مصر شيوعاً رهيباً فى الحتبة الأخيرة.
فأحب الفترات إلى القلوب الآن هى العشرينيات والثلاثينيات
والأربعينيات من هذا القرن، حين كانت المواصلات صالحة لاستخدام
الآدميين، والشوارع لا تعرف الزحام، والسماء خالية من سحب

التلوث» وحين كانت يافطات «شقة للإيجار» تصادف الأعين فى كل طريق، وسيارات الأجرة تقف فى أدب لكل من يشير لها بالوقوف، وحين كانت الحياة خالية من التوتر والضغوط العصبية والتكالب على كسب المال، وقبل أن تفسد الأخلاق وتخلو العلاقات الاجتماعية من التآخى والتراحم.. وأحب الأفلام إلى مشاهدى التلفزيون الآن عندنا هى أفلام على الكسار ونجيب الريحاني ومحمد عبد الوهاب وغيرها من أفلام تلك الحقبة. وأحب الفرق الموسيقية والغنائية إلى المستمعين هى فرقة الموسيقى العربية بما تقدمه من ألحان داود حسنى وسلامة حجازى وسيد درويش.. وقد خصصت مجلات اليوم صفحة كاملة أو صفحتين لباب محبب إلى النفوس هو مصر من سبعين عامًا أو من خمسين عامًا، يتنهد الناس عند قراءته. فإن ركبت سيارة أوتوبيس فقد يصعد إليك فيها بائع أقراص نعناع يهتف بك «نعناع بتاع زمان!» وكأنما مادام «بتاع زمان» فهو بالضرورة أفضل من أقراص نعناع اليوم.. وأحب صورة للعلم المصرى هى الراية الخضراء بهلالها ونجومها الثلاثة.. وقد كثرت محلات الأشغال الفنية التى تستلهم القديم فى صياغة الحلى والتحف.. وأضحى جانب كبير من حديث الناس عن أيام كانت البيضات العشر بقرش واحد، وكيло اللحم بعشرة، وأيام كان لدى الناس أخلاق وذمة، وحين كان بوسع أفراد الطبقة العليا أن يترددوا على دور السينما والمسارح قبل أن تدهمها الغوغاء، وحين كان عدد التلاميذ فى الفصل لا يتجاوز العشرين، وعن مناطق سكنية ملوثة كانت إلى عهد قريب مزارع خضراء.. وأين إسكندرية الأسى ببلاجاتها النظيفة ومطاعمها اليونانية وحدائقها من إسكندرية اليوم التى اختل أمرها وتلوث بحرهما وعلاها البلى والصدأ؟

وهل ظهر مطرب أو مطربة منذ أن مات عبد الوهاب وأم كلثوم؟ أو أدباء
في مثل قامة طه حسين وأحمد أمين؟ حتى سماء القاهرة نفسها كانت
أكثر زرقا..

مدى صحة الدعوى:

قال محمد بن جرير الطبري:

«حَدَّثَنَا وَكِيعٌ عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَائِشَةَ
أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّهَا كَانَتْ تَنْشُدُ بَيْتَ لَبِيدِ بْنِ رَبِيعَةَ:
ذَهَبَ الَّذِينَ يُعَاشُ فِي أَكْنَافِهِمْ

وَبَقِيَتْ فِي خَلْفٍ كَجِلْدِ الْأَجْرَبِ

ثم تقول: رحم الله لبيدا! كيف لو أدرك من نحن بين ظهرائهم!.

قال عروة: رحم الله عائشة! فكيف بها لو أدركت من نحن بين
ظهرائهم!..

قال هشام بن عروة: رحم الله أبي! فكيف لو أدرك من نحن بين
ظهرائهم!..

قال الطبري: رحم الله هشاما! فكيف لو أدرك من نحن بين
ظهرائهم!..

- هذه القصة وأمثالها توضح عمومية ظاهرة الحنين إلى الماضي وأهله،
وأنها تشمل الشعوب كافة، في العصور كافة. وعمومية الظاهرة تدفعنا إلى
الشك في صحة الدعوى ومصادقية الشعور بأن الأمور في تدهور مستمر
في كل مكان. فلو أن الشباب حقاً كان قد بدأ يفقد احترامه للآباء منذ

زمن قدماء المصريين، واستمر هذا الاحترام فى التضاؤل تدريجاً بعد ذلك، جيلاً بعد جيل، لما بقى منه شىء على زمن الرومان على أكثر تقدير! ولو أن الأخلاق شرعت فى الانحطاط منذ زمن لبيد، وبدرجة أحست بها عائشة، فعروة، فهشام، فالطبرى، فالأجيال التالية جيلاً بعد جيل، لكان من العجب أن نسمع بوجود بقية منها فى عهد حسنى مبارك! فالأمر إذن لابدّ راجع إلى طبيعة بشرية تميل دوماً إلى الانتقاص من قدر الحاضر، وإضفاء مسحة رومانسية على الماضى. وهو ما يتمثل فى قولهم: «أزياء العام المنصرم قبيحة، وما قبل عشر سنوات مضحكة، وما قبل خمسين عاماً لطيفة، وما قبل مائة عام رومانتيكية، وما قبل مائة وخمسين عاماً رائعة!».

والمؤكد عندى أن الماضى لم يكن له سحره، أو على الأقل، لم يكن ساحراً بالدرجة التى يخالها الناس.. فإن قبلت شهادة رجل مخضرم مثلى ولد فى زمن الملك فؤاد، قلت إن الأحوال لم تكن بالروعة التى يظنها الكثيرون من شباب مصر اليوم، ولَدَعَوْتُهُم إلى مقارنة الأحوال المعيشية للفلاحين والعمال والحرفيين بالأسى بأحوالهم فى يومنا هذا، والوضع الاجتماعى للمرأة فى مستهل القرن بوضعها الآن، وكذا بالنسبة لقدّر الوعى السياسى والإلمام بما يدور فى العالم الخارجى، وتفتح العقول للتيارات الفكرية المختلفة، وإدراك معنى حقوق الإنسان، والعناية بالطفل، واحترام حق الأبناء فى استقلال الرأى.. إلى آخره..

أسباب الظاهرة:

وانما يجد الناس للماضى سحراً ورونقاً لأسباب بعضها قائم فى كل عصر، وبعضها يتصل بعصرنا الحديث وظروف الحياة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية..

فاما عن الأسباب القائمة في كل عصر فمنها :

أولاً: أن الماضي إن بدا أكثر حيوية وأعظم بريقاً فليس ذلك لأنه كان أفضل من الحاضر، وإنما لأننا كنا أنفسنا أكثر تألقاً وحيوية أيام الطقولة والصبا والشباب، ثم ما عدنا الآن نشعر بالأشياء والأحداث بنفس القوة السالفة.. فأفلام يوسف وهبي هي بالتأكيد دون مستوى أفلام يوسف شاهين. غير أنه إن كان الشيوخ منا يشاهدون اليوم من جديد فيلم «بنات الريف» على شاشة التلفزيون فتدمع أعينهم، ولا تدمع أعينهم إن شاهدوا «اليوم السادس» ليوسف شاهين، فإنما تفسير ذلك هو أنهم حين شاهدوا الفيلم الأول في شبابهم كانت قدرتهم على التأثر والتجاوب أكبر من قدرتهم على التأثر بالفيلم الثاني بعد أن شابت منهم الرؤوس ووهنت العواطف، فجاء تفضيلهم الأول على ضوء استعادتهم لذكرى جيشان عواطفهم وقت الصبا والشباب.. كذلك الحال بالنسبة لما قرأناه في شبابنا من كتب، أو استمعنا إليه وقت الصبا من الموسيقى والأغاني. فإن نحن أعلننا اليوم تفضيلنا إياها على غيرها، فإنما نحن في الواقع نعلن تفضيلنا لأنفسنا وقت قراءتها أو الاستماع إليها أول مرة على أنفسنا اليوم. فالحنين إلى الماضي هو في حقيقته حنين إلى المشاعر القديمة لا إلى الأشياء القديمة.. حنين إلى أيام كنا نخال كل شيء ممكناً ومتاحاً لنا. أيام كنا نشعر بالحب ونثير في الغير مشاعر الحب تجاهنا، أيام كانت الحياة أمامنا لا خلفنا..

ثانياً: أن الماضي يحمل في طياته سمة الأمن والاطمئنان.. كل شيء فيه قد تحدد مكانه، واستقرت معالهُ، ومعروفة سلفاً ملابساته وعواقبه.

فهو كالمسرحية نأتى لمشاهدتها بعد قراءة نصّها وقد ألمنا بأحداثها وعرفنا خاتمتها.. هو معروف ومفهوم وآمن ثابت لا يتغير ولا يتحوّل. أما الحاضر فمجهول العواقب، متميع المعالم، لانكاد نفرق إزاء تعدّد جوانبه وانغماسنا فيه بين ما له قيمة دائمة، وما هو عرضى زائل..

ثالثًا: ذلك السخط الملموس دائماً عند الكافة على الحاضر. فالحياة فى جوهرها أكثرها شرّ. غير أن الناس تأبى أن تصدّق أن الشركان دوماً طابعها، وتتوهم أن الحياة فى الحاضر وحده هى التى يغلب الشر والنقاىص عليها. وعلى ذلك فهم يتصورون أن الحياة فى الماضى كانت دائماً ذات غرض وهدف، وأن الناس فيه كانوا لا يعرفون مللاً أو ضياعاً وحيرة.

رابعاً: أن جهل الغالبية بالتاريخ يسهّل على الناس تزييف الماضى. فلو أننا عدنا إلى الماضى بملابساته الحقيقية بعد تقديسه وتفخيمه، لأصابتنا خيبة أمل عظيمة. ولو أتيح لنا أن نلتقى بأبطاله والشخصيات التاريخية التى نعجب بها، لكان الأغلب أن نفجع فيهم. وكلنا يعلم هذه الحقيقة من واقع تجربتنا حين نعود لزيارة بقعة لها فى أنفسنا ذكريات سعيدة، أو حين نلتقى لأول مرة بأديب أو فنان أو سياسى كنا نخاله كاملاً.. وهل ننسى كيف ظل توفيق الحكيم يحلم بباريس وزهرة العمر، فلما أراد عبد الناصر أن يكافئه فى شيخوخته بتدبير عمل له فيها، لم يطق أن يمكث بها أكثر من أشهر قلائل؟ وفى ظنى أنه لو كان بوسعنا أن ننبىء هارون الرشيد أوسيف الدولة الحمدانى مثلاً بأسباب تفضيلنا لعصره على عصرنا، لظن بنا الخيال، ولضحك من جهلنا بزمئه..

أما عن الأسباب المتصلة بعصرنا خاصة فمنها :

أولاً: أنه بالرغم من أن المستقبل كان دوماً غامضاً بالنسبة لأبناء أى عصر، فهو بالنسبة لأبناء زماننا، وبالرغم من كتب ألفين توفلر وأمثاله، أكثر غموضاً وأحلك ظلمة، فى حين أضحت دواعى عدم الاطمئنان إليه أقوى مما كانت عليه فى أى وقت مضى، وذلك بسبب انتشار الأسلحة النووية، وتلوث البيئة، وتآكل مصادر الثروات الطبيعية والطاقة، واضطراب أسس الاقتصاد العالمى..

ثانياً: ما ساد شعوب المجتمعات الحديثة فى معظم أنحاء العالم من شعور بأن عملية التحديث لم تحل الجانب الأكبر من مشكلات البشرية « بل وتسببت فى خلق مشكلات جديدة. فثمة خيبة أمل فى فكرة التقدم والتحسين المستمر التى ازدهرت فى أواخر القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر، وتضاءلت الثقة فيما يخبئه الغد لنا، وفى قدرة العلم على استئصال ما تعانى به البشرية من شرور. وقد فقدت الحداثة ذاتها ما كان لها فى أعيننا من سحر وروعة، ويات الناس يتطلعون إلى الفرار منها بالعودة بذاكرتهم إلى الماضى، بعد أن تفاقمت ثورتهم على الحاضر واستفحل نفورهم منه..

ثالثاً: أنه مما ساعد على تغذية مشاعر الحنين إلى الماضى تزايد معدل سرعة التغيرات فى عصرنا، وضخامة هذه التغيرات، وما يحدث من ثورات كبرى تنقل مجتمعاتنا فى زمن قصير من وضع إلى وضع مناير تماماً، خاصة منذ الثورة الفرنسية. وهو أمر من شأنه أن يجعل الماضى القريب يبدو وكأنه ماض بعيد، ويفسر ما سبق أن ذكرناه عن اتساع نطاق

الماضى بحيث بات الناس يحنون إلى فترة ما قبل ثلاثين عاما أو أربعين عاما حنينهم إلى العصور السحيقة..

رابعاً: وهو سبب قد تختص به مصر، ويتصل بما شاع بين شبابها ومثقفها ومفكرها من خيبة أمل وفقدان الثقة فى مختلف الحلول والمذاهب والأيديولوجيات التى جربتتها مصر واحدة إثر أخرى على مدى قرن من الزمان، مع حماس زائد فى كل حالة، واستعداد للتضحية بالنفس فى سبيلها، وإيمان مطلق بفاعليتها، وتهليل وتمجيد لقادتها، واحتمال السجن والنفى والتشريد والتعذيب من أجل محاولة تطبيقها، حتى إذا ما طبقت، لم ينجم عنها غير شيوع الفساد والدمار الاقتصادى، وانهيار القيم والأخلاق، وقمع الديمقراطية والحريات، وتفاقم المشكلات الاجتماعية.. قد جربنا الليبرالية والحكم العسكرى، والديموقراطية وتعدد الأحزاب ونظام الحكم الواحد، والرأسمالية والاشتراكية والانفتاح الاقتصادى، والمسير فى ركاب الشرق والمسير فى ركاب الغرب، والقومية المصرية والوحدة العربية والانتماء الإفريقى، وناديننا بكافة الشعارات، وتلوننا أجهزة إعلامنا بألف لون، وقلب كتابنا والصحافيون معاطفهم ألف مرة، ورقعوها بألف رقعة، وتغنينا بمدح الحكام ثم بهجائهم، وأقمنا لهم التماثيل ثم حطمنها بعد وفاتهم، وسمينا الشوارع والميادين بأسمائهم ثم غيرناها، وحاربنا إسرائيل ثم صالحناها، وقاومنا النفوذ الأمريكى ثم تعايشنا معه، وأبرمنا معاهدة صداقة أبدية مع الروس ثم مزقناها..

فما الذى بقى لنا مما لم نجربه بعد؟ ما الذى بقى لنا غير الاستغراق بكليتنا فى ماض قد استأصلنا من معالمة كل ما هو مؤلم مزعج، وأبقينا منها على كل ما هو مشرق مبهج؟..

عبادة الأسلاف:

فأما الجماعات الإسلامية فقد اختارت الماضي البعيد، عصر النبوة والخلفاء الراشدين والسلف الصالح. وقد لجأ أفرادها إلى ارتداء الجلابيب وإطلاق اللحى وفضلوا الجلوس على الأرض عند تناول الطعام كخطوة أولى في سبيل العودة إلى العصر الذهبي. وثمة أمران يدفعان الغالبية العظمى من هؤلاء إلى الاستغراق في الحنين إلى الماضي، كلاهما يتمثلان في عجز: العجز عن تبوء مكان يرضون به في إطار النظام الاجتماعي والاقتصادي السائد، والعجز عن مواساة تعاليم الإسلام مع معالم العصر الحديث وعن إقامة الجسور النفسانية مع المجتمعات غير الإسلامية.. فهنا ثورة على الحداثة، وتنقيس مرضى عن مشاعر العقم والقهر، وتفضيل مؤسف للهروب إلى الماضي على بذل الجهود الشاقة من أجل التأقلم والتكيف والتغيير، وللبقاء في القوقعة إلى أبد الآبدين على مواجهة المصاعب والصدمات والتحديات، مع محاولة لإيهام النفس، وإيهام الغير، بأن هذا التفضيل للقوقعة ناجم عن كراهية لمظاهر الحياة الحديثة، وعن تعلق بماض مجيد، وعن التزام بتعاليم دين هو من هذا العجز والجبن برئ..



إن الحاضر هو الزمن الوحيد الذي نملك أن نعيش فيه. ولا بد للواقع من أن يفرض نفسه في وقت ما على من شاء مواجهته ومن لم يشأ. وإنما تتحقق المأساة وتقع الصدمة حين يتبدد الوهم، ويزول تأثير المخدر

بالإفاقة. كذلك فإن لن يكون يوسعنا إصلاح الواقع إصلاحا يوفر مقومات السعادة لنا إلا متى أدركنا زيف تقديس الماضي الميت ومثله، ومتى فهمنا أن تقديس الماضي لمجرد أنه ماض ينطوى على جهل، وأنه أشبه بالسراب الذى لا يعكس غير أوهامنا وأحلام يقظتنا، ومتى تصدى المفكرون منا لبيان الجوانب الإيجابية فى الحاضر والعصر الحديث مما لم يكن القديما ليحللوا ببلوغه وتحقيقه..

رَبِّ جَنْبُنِي شُرْبَ هَذَا الْكَأْسِ!

كنت وقتها أعمل وزيراً مفوضاً في العاصمة الألمانية، سعيداً بعملى، بمسكنى، بسعادة زوجتى فى حياتنا الجديدة، وسعادة بناتى الثلاث بمدرستهن، سعيداً بمحاولتى الجادة إضافة لغة جديدة إلى ما تعلمته من لغات أجنبية، وبما أتيت لي، فى مسقط رأس بيتهوفن، من فرصة تعزيز ثقافتى الموسيقية.

وفى خضمّ هذا الهناء وراحة البال، نُقل السفير المصرى إلى موقع آخر، وحلّ مكانه سفيرٌ سرعان ما اصطدمتُ به، فما كان منه إلا أن كتب إلى وزارة الخارجية يطلب نقلى إلى القاهرة «لعدم استطاعته التعاون معى».

أصبحتُ وأصيب أفراد أسرتى بالصدمة والذهول من جراء قرار النقل، رغم أن الوزارة تكرّمت بتأجيل موعد تنفيذه لمدة ثمانية أشهر، حتى أتمكن خلالها من بيع ما اشتريته من سيارة وأثاث، وتسديد ديونى، وحتى ينتهى العام الدراسى فى مدرسة بناتى. ومع ذلك فقد عشتُ خلال تلك الأشهر الثمانية فى كرب دائم، بسبب ما انتاب امرأتى من اكتئاب، وثورة البنات إذ يجدن أنفسهن يتنقلن دون إرادة منهن من بلد إلى بلد، ومن مدرسة إلى مدرسة، فتضطرب دراستهن، وتنقطع صداقاتهن، ثم اضطرارى إلى قضاء المدة فى حال من القطيعة مع السفير، وتأثر علاقاتى بغالبية زملائى نتيجة ميلهم أو اضطرارهم إلى مراعاة رئيسهم، ناهيك عن قلقتى من أن يتأثر مستقبلى فى السلك الدبلوماسى من جراء ذلك الشجار، ومن ألا أوفق فى تسديد ديونى قبل انتهاء مدة العمل بالسفارة.

حاولتُ عدة مرات أن أقنع الوزارة بإلغاء قرار النقل. وكنت أجدنى أثناء تمشيتى اليومية أردد بصوت مسموع قولة المسيح فى محنته : «ربّ جنبى شرب هذا الكأس».. غير أن محاولتى لم تصادف نجاحاً، ومرّت الشهور سراعاً حتى حلّ يوم الرحيل، ولم يكن فى وداعنا يومها غير الأصدقاء الأجانب من الألمان والسلك الدبلوماسى، دون أى موظف بالسفارة.

فى صباح اليوم التالى لوصولنا إلى القاهرة، اتّصل بى تليفونيا مدير دار الشروق للنشر، يخبرنى أن أول كتاب لى، وهو «دليل المسلم الحزين» (وكنت قد أعطيته مخطوطته عند التقائى به فى فرانكفورت عام ١٩٨١) قد صدر. فما مضت عدة أسابيع على صدوره حتى فاز بجائزة «أحسن كتاب فى معرض القاهرة الدولى للكتاب»، وهى جائزة سلّمتها لى وزير الثقافة عبد الحميد رضوان فى احتفال مهيب.. ونشرت الصحف المصرية خبر الجائزة، فإذا بالأستاذ مكرم محمد أحمد رئيس مجلس إدارة دار الهلال يتصل بى ليطلب منى أن أوافى مجلة «المصور» بمقالات أسبوعية، وهى مقالات حول الدعوة إلى تطبيق الشريعة الإسلامية، أثارت ضجةً وجدلاً كبيرين فى مصر وخارجها، سرعان ما وجدت نفسى بعدها كاتباً مشهوراً، وإذا بالعروض تنهال علىّ من الصحف والمجلات ودور النشر فى العالم العربى بطلب موافاتها بكتاباتى.

كان ذلك العام والسنوات التالية له أسعد سنّى حياتى وأهمها على الإطلاق. وإذ خطرت فى ذهنى فى يوم من أيامها ذكرى نقلى من السفارة فى بون إلى القاهرة، ساءلت نفسى عما عساه كان سيحدث - أو

بالأخرى ، ألا يحدث - لو أنه لم يدبّ خلاف بينى وبين السفير دعاه إلى طلب نقلى.. ومن يومها عاهدت نفسى عهداً لا أزال إلى يومى هذا ملتزماً به : هو ألا أسمح للحزن أن ينتابنى من جراء حادث يقع لى ، أو خبر أسمعته ، وأن أرى الخير دائماً فيما اختاره الله ، حيث أن الغالب أن تكون الاستجابة لدعاء المرء فى غير صالحه ، وأن أرسخ فى أعماقى الاعتقاد بأن مسار حياة المرء تتحكم فيه قوى خفية هى وحدها التى تدرك الغرض البعيد من كل ما يحدث له ، دون أن تعبا بفرحه أو ترحه . وتذكرت قولة لتولستوى سجلها فى يومياته : «ما من أمر وقع لى ، وتشاجرت بسببه مع القدر ، إلا ثبت بعد سنوات قلائل أنه كان فى صالحى».

وهكذا ، وبعد أن كنت أردد فى بون صيحة المسيح : «ربّ جئبنى شرب هذا الكأس» ، صرت أردد فى القاهرة وغيرها صيحته التالية (ومازلت أرددها) :

- بل مشيتك يارب ، لا مشيتى.

حول سلبيات مهنة الدبلوماسية

بعد أن أُجِلْتُ إلى التقاعد وتركتُ العمل بالسلك الدبلوماسي، رأيتُ أن أجمع بناتي الثلاث أسألهنَّ عما إذا كنَّ يعتقدن أن مهنتي وإقامتنا الطويلة خارج الوطن قد أفادتاهن أم أضرتنا بهنَّ، وعما إذا كان أولاد الدبلوماسيين وبناتهم بوجه عام من المحظوظين المنعمين، أم من المتضررين المحرومين.

أجَبَنَ جميعًا في سرعة وفي ثقة وفي نفس واحد بأن مهنتي أضرتُ بهن أفدح الضرر. وهما سرعة وثقة توحيان بأنهن قد سبق لهن التفكير طويلا في هذا الأمر، ووصلن إلى رأي قاطع. ثم إنه لمَّا يقطع بإخلاص إجابتهن أنه ما من واحدة منهن قبلت بعد تخرُّجها من الجامعة الالتحاق بالسلك الدبلوماسي، أو قبلت الزواج ممن تقدَّم لخطبتها من شباب الدبلوماسيين، خشية أن تجنى على أولادها مثلما جنييت أنا عليها!

أجبنني بأنهن عشن طفولتهن وصباهن ومقبل شبابهن هائمات شريدات، لا تستقر بهن أرض، ولا يعرفن لأنفسهن مسكنا بعينه، ولا دامت صداقة لهن أكثر من ثلاث سنوات أو أربع، ولا اتصلت دراستهن في ظل نظام واحد أو في مدرسة واحدة ومع نفس المدرسين، ولا كان لهن يد في إطالة إقامتهن في بلد أحببته، أو في قطع إقامتهن في بلد كرهته.. كل ما يذكرنه من حياتهن معنى هو إعداد الحقائق وإفراغ الحقائق، واستقبال في المطار وتوديع في المطار، وبحث عن مساكن وهجر لمساكن، وعقد صداقات ونقض صداقات، ودراسة مضطربة أينما حللن، والإقدام على تعلم لغة أجنبية إثر لغة أجنبية يعلم الله وحده

ما إذا كن سيستخدمها بعد منادرتهم للبلد الذى يتكلم بها، وتنقل لا ينقطع بين قارات مختلفة، وأنظمة سياسية واجتماعية واقتصادية متعددة، ومستويات حضارية متفاوتة، وعادات وتقاليد متباينة، وديانات وعقائد متصارعة. حتى إذا ما عُذِن إلى وطنهم لقضاء عام أو عامين فيه، وجدن أصدقاءهن الحميمين القدامى وقد بات لهم أصدقاء حميمون جُدد، وصادفن السخرية من الكافة من عَجمة فى ألسنتهن متى تكلمن العربية، وقابلن الصعوبات فى محاولة التكيف، وتعجَّب الناس من مسلكهن وزَيَّهن ونُطقهن وعاداتهن ومفاهيمهن عن الحياة، فإذا هن غريبات حتى فى وطنهن، أجنبيات حتى بين بنى جلدتهن وأقربائهن.

لم أستطع لأقوالهن دَفْعاً، ولا ملكت إلا أن أشعر إزاءها بالأسف والألم وتأنيب الضمير. غير أنى - وهو أمر طبيعى - حاولت جاهداً أن أجد للصورة وجهًا آخر، وجانباً مضيئاً يخفّف من ألى بل ويُحيله إلى إحساس بالرضا والاطمئنان.

قلت: أولاً، ليس ثمة مهنة لا يعرف الناس لها مثالب وسلبيات لصيقة بها ونابعة من طبيعتها.. ألا يشكو أبناء العسكريين من فرط النظام وصرامته فى البيت؟ وأبناء الأطباء والصحافيين من انشغال آبائهم عنهم وقلة ما يقضون معهم من وقت؟ وأبناء المعلمين والمحامين من إفراط آبائهم فى الكلام وضعف قدرتهم على الاستماع إلى الغير؟ حديثنا إذن عن سلبيات المهنة ممكن ومشروع، كحديثنا عن مخاطر المهنة.

غير أنى ذاكر لكنّ مدَى غبطينى وراحتى إذ قرأت يوماً هذه الجملة فى كتاب المستشرق البريطانى برنارد لويس عن تاريخ تركيا الحديث:

«إن الغالبية العظمى من كبار رجال الدولة وشاغلي المناصب العليا في الدولة العثمانية في القرن التاسع عشر، كانت من أبناء الدبلوماسيين الأتراك».

فما عساه أن يكون سبب هذه الظاهرة إن لم يكن في حياة أبناء الدبلوماسيين بصفة عامة، وفي تعليمهم، ما يجعلهم من المتميزين المتفوقين على أقرانهم؟

إنه لكثيراً ما حُيِّلَ إلى - رغم صحة كل ما ذكرتن عن المتاعب التي تعرضتن لها - أنكن ولدتن وفي أفواهكن ملاعق فضة! كل منكن قد صارت تملك ناصية خمس لغات أجنبية أوست، تتحدث بأيها حديث أهل هذه اللغة. قد زارت قبل بلوغها العشرين أكثر من ثلاثين دولة، وأقامت السنوات الطوال في سبع منها: في غرب أفريقيا وشمالها، وشرق أوروبا وغربها، وشمال أمريكا وجنوبها، قد عرفت عن كثب مجتمعات شيوعية ورأسمالية، متقدمة ومتخلفة، بيضاء وسمراء وسوداء، مسيحية وإسلامية وملحدة، بل وكان لها صديقات وثنيات هن بنات جيراننا النيجيريين من قبائل الإيبو، وتعلمت احترام ديانات الكافة وتقاليدهم، والجوانب الإيجابية في معتقداتهم وعاداتهم. قد عاشت في ظل أنظمة ديكتاتورية ثقيلة الوطأة، لا تعبر عن الرأي إلا خلسة، ولا تنهس بالكلمة إلا همساً، وفي ظل ديموقراطية تسمع فيها أكثر ما تسمع من أبنائها عبارة «نحن في بلد حراً».. قد شهدت صرامة الألمان ونظامهم وجنهم في العمل، وشهدت مرج البرازيليين ولهوهم على الشاطئ واحتفالهم بكرة القدم والكرنفالات أكثر من احتفالهم بأي شيء آخر من أمور الحياة. راقبت مظاهر التفرقة العنصرية في الولايات

المتحدة، ومشاكل الجنسيات المتعددة فى الاتحاد السوفياتى، وتأثير الاستعمار الفرنسى فى لغة الجزائريين وعاداتهم وطبائعهم، والانحسار التدريجى فى اعتزاز البريطانيين القديم ببريطانيتهم..

فكم يا تُرى من المصريين قد أُتيح لهم ما أُتيح لكن من فرصة للاطلاع على ما اطلعتن عليه، ولاكتساب ما اكتسبتن من لغات وخبرات؟ ألا يقول المثل العربى القديم: «من لم يعرف غير لغته لم يعرف لغته، ومن لم يعرف غير وطنه لم يعرف وطنه، ومن لم يعرف غير دينه لم يعرف دينه؟» .

وما من شك عندى فى أن أبناء الدبلوماسيين وبناتهم قد عرفوا أكثر من غالبية بنى جلدتهم لغات غيرهم وأوطان غيرهم وديانات غيرهم. وهم بالتالى مؤهلون أكثر من غيرهم للحكم على مختلف جوانب الحياة فى مجتمعهم، وأحدُ نظرة إلى هذه الجوانب، حتى إن بدوا غرباء فى بلادهم، ومع الصعوبة التى يعانونها فى التكيف مع واقع الأحوال فيها. وعلى حدِّ قول المتنِّبى:

«إن الكريم غريب حيثما كانا»

قالت الكبرى:

كل هذا صحيح أيضا، وكفيل بأن يُدخل إلى قلبك وقلوبنا العزاء، وأن يخفف فى نفوسنا مشاعر النعمة على قدرنا! أمر واحد جليل لا أحسبك تملك معه دفاعًا، وأعنى به اضطرار أبناء الدبلوماسيين وبناتهم فى طفولتهم إلى هجر كل ما هو مألوف من وطن وسكن ووجوه ومعالم إلى آخره، والانتقال فجأة إلى وسط جديد كل ما فيه غير مألوف.. فقد أكد

علماء النفس جميعاً دون استثناء أن انتقال الطفل على هذا النحو من المألوف الذى بدأ يستشعر إزاءه بالدفء والاطمئنان، إلى الجديد غير المألوف الذى سيستشعر إزاءه بالحيرة والخوف، من المؤكد أن ينجم عنه إحساس بالافتقار إلى الأمن قد يستمر معه طيلة الحياة، وأن يؤثر فى مواقفه مما حوله ومن حوله، وخبراته فى المستقبل. وهم لذلك ينصحون الآباء بأن يضمنوا أن يُحاط الطفل قدر المستطاع بما هو ثابت متكرر، وبأن يتجنبوا - حتى يبلغ الطفل سن السابعة أو الثامنة - تغيير المسكن أو الأثاث أو العادات أو الوجوه المحيطة أو المدرسة إلى آخره، حتى ترسخ دعائم أسس متينة يمكن بعدها التنقل والتغيير دون عواقب وخيمة.

قلت :

صدقت. هذا هو أخطر آثار المهنة على أبناء الدبلوماسيين.. وعلى المقبلين على اختيارها من الآباء والأمهات أن يوازنوا قبل اتخاذ قرار بشأنها بين هذا الاحتمال شبه المؤكد أن يفقد أولادهم الإحساس بالأمن، وبين الاحتمال شبه المؤكد هو أيضاً أن يكتسب أولادهم وبناتهم من التميز العقلى « ومن سعة الأفق، ما هو كفىل بأن يجعلهم من صفوة أفراد مجتمعهم » ومن قاداته فى مختلف الميادين..

«ساكن قصاى.. وباحبة» !

فى سنوات صباى ومستهلّ الشباب، كانت ظاهرة عشق بنت الجيران، أو ابن الجيران، من معالم حياة أبناء جيلى وبنايه.. إذ من ذا الذى لم يبدأ مّا نشاطه الغرامى بالتطلّع إلى ما وراء نوافذ جيرانه؟ وهى ظاهرة تكاد الآن أن تكون فى طريقها السريع إلى الاندثار، وكذا كل ما يتعلّق بها ويتناولها من أغان وقصص وقصائد.

وراء ذلك سببان رئيسيان، وثلاثة أسباب ثانوية:

السبب الأول، وهو الأهم: تلك القيود والتقاليد الاجتماعية التى كانت تفرض على الشباب (خاصة الإناث) قدراً كبيراً من العزلة والفصل بين الجنسين. وهى عزلة انتهت بما بقنا نخبره اليوم من الاختلاط فى النوادى الرياضية، وأماكن العمل، ومختلف المنتديات وأماكن اللهى، مما يسمح للشباب من الجنسين بمساحة أوسع من حرية الالتقاء، وفرصة المقارنة.. إذ من كان يُتاح للفتاة منذ نصف قرن أن تراه غير شاب من أقرانها يزور بيتها مصحوباً بأبويه، أو جار تراه من نافذة غرفتها واقفاً منذ مدة فى مواجهتها فى انتظار فتحها للشباك؟

نظرة فابقساماً فسلامً فكلامً فموعداً فلقاءً

(أحمد شوقى)

السبب الثانى (وهو لا يقلّ عن الأول فى الأهمية): تلك النظرة الرومانسية التى كانت فى الماضى تميّز موقف كل من الجنسين من أفراد الجنس الآخر.. فهنا عشق لابنة الجيران لمجرد أنها أنثى (فى سن

مناسبة)، وعشق لابن الجيران لأنه ذكر (فى سنن مناسبة). ثم لا يبقى بعد ذلك على العاشق إلا أن يخلع على معشوقه أسمى الصفات وأرقها وأنبلها، حتى قبل أن يتبادل معه كلمة. وليس من المستبعد إن كان لأحدهما اتجاه أدبى (أو حتى بدون اتجاه أدبى) أن يقول فى الآخر شعرا يصفه فيه بصفات لا يمكن أن يكون الوقت قد أتىح له كى يتبينها فيه.

لم يكن من الشائع وقتذاك الحديث عن ضرورة اتفاق المزارب والأمزجة، والإصرار على توافر شروط كتقارب مستوى الثقافة واتحاد الميول. فهنا اكتفاء واضح بمجرد اختلاف الجنس، وحسن الصورة. ثم لا بأس بعد ذلك بتناسب فى السن وتقارب فى المستوى الاجتماعى والمالى، تماماً كما فى الزيجات التى كانت تدبرها الخاطبة فى ذلك الزمان. ذلك أن القوم فى بلادنا وقت بساطة العيش لم تكن تميز بين أفرادهم تلك الاختلافات الشاسعة التى تميز أفراد الزمن الراهن، ولا كانت الاهتمامات وقتها متنوعة ومتخصصة مثلها اليوم، بحيث كان الحديث فى زمن صباى عن عدم اتفاق الميول بين هذه المرأة وهذا الرجل كالحديث عن اختلاف الميول بين هذه البقرة وهذا الثور.

أما عن الأسباب الثانوية الثلاثة فهى:

الأول: ما طرأ على المعمار الحديث وتخطيط المدن من تطوّر، بحيث لم تعد المساكن متقاربة كما كانت فى الماضى حين كان بالوسع تبادل الحديث الهامس، (بل والتقاؤف بالرسائل الغرامية فى بعض الأحيان)، وأدى الاتجاه إلى توسيع الشوارع لدواعى الصحة وغيرها إلى أن أصبح

الجار لا يكاد يميز ملامح جارته إلا بصعوبة (أو بالاستعانة بنظارة مكبرة)، مع استحالة تبادل الحديث ولو بالصراخ، ناهيك عن الهمس.

الثاني: ما طرأ على العلاقات بين الجيران في زمننا من التردّي والتدهور. فبعد التزام صارم في الماضي بتوصية الرسول عليه السلام «على سابع جار»، وبعد أن كان المرء على معرفة كاملة بكافة جيرانه، وعلى صلة دائمة بهم، يشاركهم الأفراح والأحزان، ويلجأ إليهم وقت الحاجة والأزمات، بل ولا يجد غضاظة في أن يطلب من جاره «تلقيمة» بُنّ، أو بعض السكر أو الجاز إن جاءه زائر مفاجئ، أصبحنا اليوم والمرء لا يكاد يعرف هويّة جيرانه، ومن النادر أن يتبادل معهم التحية - ناهيك عن الحديث - إن التقى بهم وجها لوجه. بل الغالب أن تكون العلاقات بين الجيران أبعد ما تكون عن أن توصف بالوديّة، بعد أن كثرت الشكوى من استخدام الجار لمذياعه أو تلفازه استخدامًا مقلقًا للراحة، أو إلقاءه القمامة على نحو يتضرّر جاره منه.. إلى آخره.

الثالث: اختلاف الانتماء الطبقي لسكان الحيّ الواحد. فقد كان سكان الحيّ أو الحارة أو العمارة في الماضي هم في العادة من مستويات اجتماعية ومالية متقاربة، بحيث يمكن للفتاة أن تطمئن إلى أن ابن الجيران هو من عائلة شبيهة إلى حدّ كبير بمائلتها، بل وقد يكون أبوه محترفًا لنفس مهنة أبيها أو لمهنة مماثلة لها.. أما اليوم، وبعد أن أُخِيت الدهر على الكثيرين من أبناء الطبقة المتوسطة وأحبالهم إلى بروليتاريا كادحة، وبعد أن «نال الغنى وَلَدُ القُرب» على حدّ تعبير شوقي، أضحي من المألوف الشائع أن يجاور مسكّن الوزير مسكّن الراقصة، وأن تُطل نوافذ شقة الأستاذ الجامعي على شقة تاجر المخدرات..

بعض مشكلات الناشرين ورؤساء التحرير!

ثمة مشكلة لا شك في أنها كثيرا ما تسبب الحرج لرؤساء التحرير والناشرين، والحيرة للقراء، والغضب لدى الكتاب الناشئين..

هذه المشكلة هي: ماذا لو أن كاتبًا كبيرًا شهيرًا، أو صاحب عمود أو مقال يومي أو أسبوعي ذائع الصيت، تقدم إلى الناشر أو إلى رئيس التحرير بكتاب غث، أو مقال سخي لا يصدر إلا عن شيخ أدركه الخرف، أو مراهق ظن في نفسه موهبة الكتابة؟ ماذا عساه أن يصنع حينئذ وهو يجد حرجًا في أن يُلقى بالكتاب أو المقال في سلة المهملات شأنه عادة مع كتابات الناشئين (حتى الجيدة منها)، ولا يستطيع أن يواجه المؤلف الكبير بعبارة: «سيدى الفاضل، هذا الذى كتبته محض هراء!»، ويستنظع أن تصدر الجريدة أو المجلة دون العمود اليومي أو الأسبوعي في موقعه المعتاد، وقد يعذبه إغراء فكرة أن الكتاب مهما بلغت تفاهته سيلقى رواجًا لدى جمهور المعجبين بالكاتب الكبير، أو ترضيه فكرة أن صحيفته أو مجلته تحوى مادة بقلم أحد المشاهير؟..

السؤال صعب، قد خطر بذهنى بعد قراءة مؤخرًا مقالاً لكاتب ذائع الصيت في صحيفة عربية كبيرة يكتب لها عمودًا يوميًا منذ عشرات السنين، يشكو فيه من أن المرأة الجانبية لميادته قد سُرقت، فما اشترى بديلة لها حتى سُرقت هي أيضا بعد أيام قليلة. وحين عبر لبواب العمارة التى يسكنها عن ضيقه، عراه البواب بقوله إن سيارة جاره لم تُسرق منها المرأة الجانبية فحسب، بل والطاسات والمساحات أيضا!..

سأحاول من جانبى أن أورد بعض الإجابات المحتملة:

وأبدأ فأقول إنه وإن كان من السهل نسبياً على ناشر الكتب أن يدفع ما يأتيه من مخطوطات إلى قارئ موظف عنده يثق في رأيه ليقدم أحكامه بشأنها، فإنه ما من أحد يتوقع من رؤساء تحرير الصحف والمجلات (أو حتى من معاونيهم الرئيسيين محدودي العدد) أن يقرءوا كل ما يرد إليهم يومياً من أكوام النصوص من كل من ظن أنه قادر على كتابة مقال جيد، وهم الذين لا يكادون أن يجدوا الوقت للجلوس إلى وجبة ساخنة واحدة، أو للاستمتاع ساعة بصحبة زوجاتهم وأبنائهم..

قد يشعر الكاتب الناشئ - كما سبق القول - بمرارة شديدة لها بالقطع ما يبررها إذ يقرأ تفاهات المشاهير، وهو الذى يجد صعوبة كبرى فى إقناع الصحيفة بأن تنشر ما يعتبره مقالاً رائعاً له.. غير أن بوسع رئيس التحرير أن يورد على هذا إجابة ذات شقين:

الأول: أنه فى حين يجد ناشر الكتب من واجبه المهني، بل ومن مصلحته المادية، أن يكتشف المواهب الجديدة، وأن ينشر للنوابغ من الأدباء الشبان، فإن رؤساء تحرير الجرائد والمجلات هم فى العادة غير مسئولين عن تقديم أعمال المواهب الناشئة (ما لم يكن هذا هو الغرض الرئيسى لدى مجلة متخصصة)، وإنما يرون مسئوليتهم الكبرى فى إرضاء جمهور القراء، ويعتقدون أن أحد السبل الرئيسية إلى هذا الإرضاء استكتاب المشاهير من أصحاب الأقلام..

والثانى: أن القائمين بالتحرير - مهما عظمت حصيلة قراءاتهم وثقافتهم - لا يمكن أن تتوفر لهم الثقة فى أن المقالة الجيدة أو القصة القصيرة الرائعة التى وصلتهم من شاب مغمور لم تُسرق فكرتها (أو حتى

بحذافيرها) من كاتب آخر، أو من كتاب غير مشهور. ونذكر كمثال لذلك حادثة إعلان القسم العربى من هيئة الإذاعة البريطانية من نحو عشرين عاماً عن مسابقة أحسن قصة قصيرة، وكان الحكم فيها الروائى السودانى الطيب صالح، وفاز بالجائزة الأولى فى المسابقة شاب مصرى لم يسمع باسمه أحد، ثم اتضح فيما بعد أن القصة الممتازة التى تقدم بها قصة قديمة ليوسف إدريس لم يكن الطيب صالح قد قرأها..

مثل هذه الأعداء أعداء مشروعة ومقبولة تماماً. أما غير المقبول وما من حق الأدباء الناشئين أن ي غضبوا منه، فهو أن تنشر الجرائد والمجلات مواد معينة لا من أجل إرضاء قرائها وإنما لإرضاء كاتبها! فهذا سفير سابق لدى دولة عربية اعتاد أن يخصص سيارة السفارة لتنقلات رئيس تحرير جريدة معينة فى بلده كلما حل زائراً بتلك الدولة، وأن يخرج معه للتسوق أو أن يبعث إليه باحتياجاته فى الحقيبة الدبلوماسية، ثم إذا به بعد إحالته إلى المعاش وقد عُين كاتباً لعمود أسبوعى فى تلك الجريدة ينشر فيه ما شاء من سخافات، لمجرد رغبة رئيس التحرير فى رد الجميل.. وهذه سيدة واسعة الثراء تدعو إلى حفلاتها الفاخرة هذا المحرر الكبير أو ذاك وتوافيه من حين لآخر بهداياها الثمينة، فىرى لزماً عليه أن ينشر ما تبعث به إليه من قصص كتلك التى تكتبها فتيات المدارس الثانوية، إما من قبيل الاعتراف بأفضالها الماضية، أو لضمان استمرار أفضالها التالية، خاصة إن كانت السيدة تتمتع إلى جانب ثرائها بمسحة من جمال.. وهذا رجل ثقیل غبى، خال من الثقافة والواهب، قد تمكن لسبب أو آخر من نيل الحظوة لدى أحد الرؤساء وعلية القوم، ورجاه أن ينبه على رئيس تحرير هذه الصحيفة أو تلك أن ينشر له «خواتره» فإذا

رئيس التحرير لا يملك إلا أن يمثل للإرادة السنية خشية أن يناله من صاحب الإرادة مكروه.. على كل هذه الأحوال وأمثالها تنطبق القولة الخبيثة بأن نجاحك لا يتوقف على ما تعرفه، وإنما على من تعرفه!.. إنه ما من شك في أن ميدان النشر حافل بالمظالم. والمظلمة الرئيسية فيه تتلخص في عبارة واحدة: أن صاحب الموهبة الحقيقية يجد عناء شديداً طويلاً لا مبرر له حتى يُفتح باب له فيجد لنفسه منفذاً إلى النور، حتى إذا ما نجح في إرساء دعائم شهرته، ظلت الأبواب جميعاً مفتوحة له على مصراعيها حتى لو ضاغت موهبته ونضبت قريحته. وبوسعنا جميعاً أن نرى أن ناشري الكتب ورؤساء التحرير كثيراً ما ينشرون لمشاهير الكتاب ما لا يمكن بأى حال من الأحوال أن يقبلوه من المغفورين، وأن القراء كان لابد أن يزوروا بوجوههم في سخرية واستياء عن سخافات وتزوهات لولا أن كتبها ذائمو الصيت، فاضطروا اضطراً إلى محاولة استشفاف ما لعله كامن فيها من أفكار عميقة هي في الحقيقة خالية منها..

غير أن المرء لابد أن يلتمس العذر هنا للقارئ كما التمسناه في البداية للناشر ورئيس التحرير. ذلك أنه من الطبيعي، في كل مجالات الحياة، أن يطلب الفرد لنفسه من السلع والخدمات ما ثبتت على مرّ الأيام صلاحيته ورسخت في الأذهان أحقيته وسمعته، سواء كانت هذه السلعة أو الخدمة صنفاً من السمن البلدى، أو علامة تجارية لرباط عنق، أو نجماً سينمائياً، أو مؤلفاً روائياً.. فهو إن دخل مكتبة لشراء رواية ورأى على رفوفها المئات من الروايات، لا غرو سيكون أكثر اطمئناناً وأقل إحساساً بالإقبال على المخاطرة بنقوده لو أنه انتقى رواية لنجيب محفوظ، أو

تشارلس ديكنز، تمامًا كما أن ربة البيت إن هى دخلت إلى السوبر ماركت لشراء صابون وجه، كان الأغلب أن تمتد يدها إلى صابون بالموليف مثلاً دون نوع من الصابون لم تسمع عنه. فصابون بالموليف، أو معجون جيليت للحلاقة، قد ذاع صيته وثبتت شهرته بفضل أمرين: زمان طويل من الممارسة والخبرة فى الميدان، وإنتاج تمتع برضا حشد كبير من الزبائن. ومن منا بوسعنا أن ينكر أن تقديره للوحة فنية معينة لا يعرف اسم راسمها سيطراً عليه تغير حاسم لو أنه علم فيما بعد أنها لسيزان أو فان جوخ؟ وقد يعرف البعض أن بيكاسو كان يأبى التوقيع على لوحاته قبل خروجها من مرسمه حتى لا يطمع اللصوص فى اقتحامه لسرقتها، لعلمهم أن قيمتها بعد التوقيع هى أضعاف أضعاف قيمتها قبله.. ولا بأس من أن أورد هنا ما يُحكى عن أن ليوتولستوى، بعد كتابته لقصة قصيرة، بعث بها إلى رئيس تحرير إحدى الصحف مع رسالة يقول له فيها أن البستاني الذى يعمل عنده يسلى نفسه أحياناً بكتابه القصص، بينها تلك القصة المرفقة، فردها رئيس التحرير معتذراً بقوله إن بستانيه - للأسف - خال من الموهبة!..

قد نسخر نحن الآن من هذا الرد من رئيس التحرير. غير أنه مما يدفعنا إلى التخفيف من حكمنا القاسى عليه علمنا بأن حكم الإنسان على العمل الفنى هو فى المادة عسير بطئ..

ما يزيد الأمر تعقيداً بالنسبة للناشرين ورؤساء التحرير هو استسهال الشباب للكتابة.. فالجندى مثلاً فى حاجة إلى التدريب لعدة أشهر أو لعدة سنوات قبل أن يتقن مهنته. وصانع الأحذية أو صانع الساعات فى حاجة إلى استكمال عدد من الأدوات والآلات والمواد الخام بالإضافة إلى

التدريب الطويل قبل أن يمارس حرفته.. أما عند الآنسات أو المراهقين الراغبين فى كتابة رواية أو قرص شعر، ففى القلم وبعض الورق ما يفهمهم (ومن ذا الذى لا يملك قلمًا وورقًا؟) ثم بعض الثقة بأنفسهم والإيمان بموهبتهم، وهو إيمان قد لا يشاركهم فيه أحد. وها هم يمارسون نشاطهم الأدبى فى أى وقت يحلو لهم، نهارًا كان أو ليلاً أو فجرًا، مرتدين الحلة أو البيجاما، فى المقهى أو النادى أو البيت، لنصف ساعة فى اليوم أو عشر ساعات، يحلمون باليوم الذى يذيع صيتهم فيه، ويمطرهم القراء برسائل الإعجاب، ويتزاحم الناشرون عليهم للتعاقد معهم، ويظهرون على شاشة التلفزيون للإدلاء بآرائهم فى الحب والسياسة.. ثم تكون نتيجة هذه الأحلام أن يُمطر الناشرون والمحرورون بالكتب والنصائد والمقالات والروايات، فإن لم تُنشر اهتمهم المراهقون والآنسات بإهدار المواهب، والعجز عن التقييم السليم، وتحجر المفاهيم، والتعصب ضد الشباب، وتفضيل المشاهير المسنين ممن قد انقضى أوانهم..

على الشباب أن يفهم جيداً أن الكتابة نشاط يحتاج كشأن معظم الأنشطة الأخرى إلى سنوات طويلة من الإعداد والتدريب الشاقين، وأن يعى جيداً أن واحداً فى المائة، أو واحداً فى الألف، ممن يختارها منهم لنفسه قد يكتب له النجاح، بينما يكتب على الباقيين الفشل.. لذلك نجد الكثيرين من مشاهير الكتاب ينصحون الشبان الذين يتقدمون إليهم بطلب الرأى والمشورة، بأن يلتزموا لأنفسهم ميداناً آخر غير التأليف، أو أن يكسبوا رزقهم عن طريق مضمون العاقبة.. وهم فى نصيحهم هذا - وإن ألم الشاب - مدفوعون بدافع الإشفاق، ويذكرى ما خبروه هم فى بداية حياتهم وخبره حشد من أقرانهم من فشل وإحباط ومعاناة لا حد لها.

هى إذن قسوة فى باطنها الرحمة. ولكن.. من ذا عساه من الناشرين ورؤساء التحرير أو مشاهير الكتّاب الذين يدلون بمثل هذا التصح يمكنه أن يثق فى أنه بنصحه هذا، أو برفضه النشر لهذا الشاب المبتدئ أو ذاك، لن يكون السبب فى إيراد الباب فى وجهه بديع زمانه، أو ميخائيل نعيمة جديد، ولن يتسبب فى توجيهه من كان يوسعه أن يتألق تألق جبران أو بيرم التونسي إلى الالتحاق بالسلك الدبلوماسى أو العمل ببورصة الأوراق المالية؟ وهل يمكن لهم أولنا أن ننسى كيف أن مارسيل بروسست مؤلف أعظم رواية فى القرن العشرين (بحثاً عن الزمن الضائع)، حين تقدم فى تردد واستحياء بالمجلد الأول من روايته إلى دار نشر «الرواية الفرنسية الجديدة»، رفضها فى غلظة واستعلاء أحد مديريها، وهو أندريه جيد، الذى عاد بعد أكثر من عشر سنوات يعلن على الملأ أن رفضه نشر رواية بروسست كان أكبر غلظة وأعظم حماقة ارتكبها فى حياته؟..

أى خَلَل هذا فى القيم؟

امراة إنجليزية تلقى مصرعها فى حادث سيارة بباريس.. ما الذى يسوّغ أن يصبح موتها حديث شعوب العالم وصحافته؟.. لاعب بيزبول أمريكى. زنجى يقتل مطلقة وعشيقتها.. ما الذى يدفع الناس إلى متابعة محاكمته لمدة سنة باهتمام جم؟.. ممثل سينمائى مصرى ظهر فى عدة أفلام أجنبية تسرى إشاعة عن زواجه بمطلقة موسيقى مصرى.. أى شىء فى هذا يبرر أن يصبح محور مناقشة الناس فى مجالسهم؟..

أى اختلال هذا فى القيم؟ ومن المستول عنه؟..

زواج فتاة إنجليزية من ولى العهد فى بريطانيا هو عندى فى مثل وزن زواج بائنة فجل فى مصر ببائع بطيخ.. أية حماقة تلك - بل أية جريمة - دفعتهم إلى إقامة مثل ذلك الاحتفال الرهيب بالزفاف، وإنفاق الملايين عليه، وإذاعة طقوسه فى جميع أنحاء العالم؟ أما كان ذلك الاحتفال نفسه فى حقيقة الأمر أول خطوة فى الطريق إلى الهاوية؟..

أكانت الصحف وكان مصوروها المسؤولين عن مصرعها؟ الصحف - فى سبيل الكسب - تحاول إشباع احتياجات الجماهير، والاستجابة لمطالبتها بنفى الملل عنها. وهى تدفع المبالغ الباهظة للمصورين مقابل صور للأميرة الالهية لا لسبب غير أن الجمهور يريد أن يتفرج. على تلك الصور. ولو كان الجمهور غير عابئ بأخبار الأميرة وصورها ما ألقت الصحف إليها بالا ولا فكر مصور فى تصويرها ولو وقتت أمامه عارية..

هذا حق. غير أنه حق أيضا أن وسائل الإعلام تسعى دائما إلى خلق احتياجات زائفة لدى الجمهور من أجل رواج صحفها وإذاعتها وبرامجها

التليفزيونية.. احتياجات ما كانت الجماهير لتشعر بها لولا هذا السعي الدائب المتعمد من جانب وسائل الإعلام حتى يهتم الخلق بما لم يكونوا يرونه خليقاً بالاهتمام.. إذ ما الذى عساه - بالله عليكم - أن يهمنى من أمر زنجى قتل مطلقة على بعد آلاف الأميال من موطنى؟ لأنه لاعب بيزبول؟ وما دخل جريمة القتل فى رياضة البيزبول؟ ما دخل أدوار عمر الشريف السينمائية فى زيجاته أو شغفه بالبريدج؟ لماذا شغل مصرع امرأة إنجليزية وعشيقها من اهتمامات الناس أضعاف ما شغلكه قوانين تصدر لخدمة أصحاب الثراء؟ ..

اهتمامات الناس مثل ذاكرتهم، لها سعة معينة وحدود معينة. إن اهتمت بأمر فعلى حساب أمر آخر. والمسألة مسألة أولويات. إن شغل ذهنك مصرع امرأة إنجليزية فى نفق من أنفاق باريس فعلى حساب انشغالك بأمر الفساد وتفكيرك فى طرق التصدى له. هذا علاوة على أنه يزيدك تفاهة، تفاهة تبرر شيوع الفساد الذى يعيش فيه أمثالك..

أقول إن المسئولية فى النهاية تقع على عاتق أجهزة الإعلام، الداخلية والخارجية، والخارجية أكثر من الداخلية. إذ كم من الجرائم ارتكبتها وترتكبها محطة سى. إن. إن. مثلاً فى هذا المضمار، فى مضمار اختلال قيمنا وزيف اهتماماتنا؟..

يردون بأن العالم قد أضحى قرية كونيّة « ولا مفر من أن تهتم بمصرع أميرة بريطانية اهتمامك بمصرع فدائي فلسطينى أو فلاح مصرى.. ألا ليت هذا صحيح، وكان اهتمام رجل الشارع الأمريكى أو الإنجليزى بمصرع الفلاح المصرى والشهيد الفلسطينى كاهتمامه بمصرع ديانا أو ليتنا ما عشنا حتى شهدنا القرية الكونية وبقينا شأننا فى زمن المقرضى حين كان الخبر لا يصل إلى القاهرة من الأقاليم إلا بعد شهر أو أشهر، بشرط

أن يكون الخبر هائماً، وما كان يصلها أصلاً خبر كخبر مصرع امرأة إنجليزية مطلقة مع عشيقها وهما فى الطريق إلى شقة الثانى فى باريس لقضاء ليلتهما فيها..

وهو ما يقودنى إلى نقطة ثانية :

الجميع بما فى ذلك زعماء العالم ينعمون الفريدة ويرسلون برقيات المراء إلى مطلقها ووالدة مطلقها، ويسردون كريم صفاتها، ويتغنون بحميد أخلاقها وبإنسانيتها وقلبها الكبير وتعاطفها مع ضحايا الألغام ومرضى الإيدز، وينعتونها بأنها امرأة نموذجية تحتذى.. الجميع فعل ذلك، بما فى ذلك الملك حسين والرئيس شيراك والأمير سيهانوك ورئيس الوزارة تونى بلير وزعماء الدول الأفريقية والآسيوية والأمريكية والأوروبية، بل وقداسة البابا فى روما نفسه...

أريد أن أسأل هؤلاء، خاصة البابا ، هل فكرتم لحظة فى عواقب مثل هذا التأبين السخى، وهذا المديح القوى، لامرأة تعرف الشعوب كافة - بل واعترفت هى بنفسها على الملأ - أنها كانت تخون زوجها فى ظل الرابطة الزوجية، وأنها ظلت تتنقل بعد انفصام تلك الرابطة من عشيق إلى عشيق إلى عشيق؟ ما عساه أن يكون تأثير تلك المباركة الاجماعية لمثل هذه المرأة فى فكر وأخلاقيات وسلوك النساء والفتيات؟ هل فكر رأس الكنيسة وفكر هؤلاء فيما يمكن أن يراود النساء والفتيات من مشاعر التخبط ومن الحيرة والبلبللة إذ يلمنس الدليل الناصع القاطع على أن السلوك الجنسى الذى كن قبل مصرع ديانا يعتبرنه فاضحاً، لا يمنع من أن تكون صاحبته عظيمة لا كسائر النساء، وقدوة ينبغى على بنات جنسها أن يحتذينها؟.. أجيبونى لافض الله أفواهكم: أى خلل هذا الذى أصابنا حتى انتهينا إلى ما انتهينا إليه؟..

خواطر وانطباعات من واشنجنطون

- ١ -

(١)

حين قرّر الحكام فى أوروبا مع بداية الثورة الصناعية أن يسمحوا للعمال بتعلّم القراءة والكتابة باعتبارهما مفيدتين فى تشغيل الآلة، اعترض المحافظون على هذه التجربة الخطرة التى قد تدفع العمال - متى انغمسوا فى القراءة، واحاطوا بأكثر مما ينبغى لهم أن يحيطوا به من حقائق الأمور - إلى التفكير فى الإطاحة بساداتهم.. غير أن النصر كان حليف التقدّمين من أمثال جون ستيوارت ميل. وكانت النتيجة (كما توقّع المحافظون) أن نجحت معظم الشعوب الأوروبية فى التخلص من أنظمة الحكم الغاشمة، أو انتزع العمال حقوقهم انتزاعًا من أيدي أصحاب رؤوس الأموال.. بل إن الفرنسيين الأكثر ولعًا بالقراءة والنظريات والتجارب السياسية من غيرهم، شهدوا خلال قرنين من الزمان حكومة الإدارة، وحكومة القنصل بوناپرت، وإمبراطوريتين، وثلاثة ملوك، وخمس جمهوريات!

هذا هو ما يحدث حين يأخذ الناس القراءة والكتابة على محمل الجدّ.. أما الأمريكيون فما كانوا فى يوم من الأيام شديدي الولع بالقراءة، ولا كان لديهم وقت لها وهم فى معمة البيع والشراء، والإنتاج والاستهلاك. ولذا فإن دولتهم اليوم تكاد تكون الدولة الوحيدة التى لم يعرف تاريخها انقلابًا واحدًا ضد نظام الحكم.

وهم فى زمننا هذا قد ساد بينهم الاعتقاد بأن كافة صنوف المعرفة يمكن نقلها وبثها بطرق غير طريق القراءة الذى أضحى «موضة قديمة»، بل ويتساءل لسانُ حالهم عن جدوى كتابة أى شىء عدا طريقة تشغيل آلة، أو فتح علبة، أو شرح لعبة، وما يحوى هذا الطعام المُشترى أو ذاك من سُعرات حرارية!

البعض لا يزال يقرأ: الجرائد اليومية فى القطارات أثناء عودتهم فى المساء من عملهم، والمجلات الأسبوعية إن لم يجدوا فى البرامج التلفزيونية العديدة ما يريدون مشاهدته! بل والكتب إن كان الجو فى عطلة نهاية الأسبوع لا يسمح بنزهة أو ممارسة رياضة. غير أن معظم هؤلاء الأخيرين يقرأ كتباً رديئة غثّة، لا لأن هذه الأقلية التى هى فى انحسار مستمر تمسك الكتب الرديئة، وإنما لأن الكتب الجيدة - ماضيها وحاضرها - لم تعد تجذبهم أو تثير اهتمامهم، أو توفر التسلية لإنسان أرهقه العمل فى المكتب أو المصنع أو المتجر. وإذ باتت التسلية هدف القارئ، فقد باتت أيضاً، وبالضرورة، هدف الكاتب. ولا تنافس كتب التسلية هنا فى الرّواج غير الكتب الدينية التى يكتب معظمها متاجرون بالدين، وتحوى «اعترافاتهم» وتجاريهم فى البحث عن الحق، وتوصلهم فى النهاية إلى الطريق إلى الله، بعد سنوات من تعاطى المخدرات أو الخمر، والانغماس فى العنف أو الفجور، وبعد إشراف على الانهيار، وتفكير فى الانتحار.. مثل هذه الكتب تباع للأصوليين المسيحيين فى مئات المكتبات، وتبلغ قيمة المبيع منها فى السنة الواحدة أكثر من ستمائة مليون دولار.

(٢)

وقد كانت إحدى نتائج كل ذلك أن باتت للجامعات الهيمنة شبه الكاملة في مجال الفكر الجاد، دون أن يتمكن رجالها ونساؤها من إنتاج فكر حقيقي ذي قيمة، رغم اعتقادهم أن كشف الحقيقة قاصر عليهم، وأنهم بإعادة ترتيب الحقائق المعروفة، وبحواشيهم الطويلة، وفهارسهم المصنّفة، قد أتاحوا للقارئ فرصة العثور عليها! فهم بصفة رئيسية أناس مشغولون بجمع الحقائق الصغيرة من أجل خدمة مستقبلهم في السلم المهني، كل نقطة من نقاط بحثهم يرونها جديرة بنفس القدر من العناية والتفصيل، لا يفرّقون بين الحيوى الهام وبين تافه القدر، ويتلاعبون كالبهلولونات بالكلمات حتى يُثبتوا شيئاً لا قيمة له، أو أمراً لا يمكن إثباته.. ثم ما من فرض لهذا كله غير إضافة بحث جديد إلى قائمة بحوثهم فتساعدهم على نيل ترقية، أو أن ينوّه باحثون آخرون ببحثهم في كتبهم، ويوردوه في ثبوت مصادر تلك الكتب، أو أن يقع الاختيار عليهم أعضاء في اللجنة المانحة لجوائز بوليتزر، فيعطون الجائزة لصديق قد ينضم فيما بعد إلى تلك اللجنة، فيقرّر ردّ الجميل ومنحهم هم بدورهم تلك الجائزة!

إننى حين أرقب هؤلاء الأساتذة الجامعيين الأمريكيين يستعينون في كتابة بحوثهم وكتبهم بالمعشرات من الطلبة والمعاونين، وبأجهزة الكمبيوتر المذهلة، ينتابني إحساس من الإشفاق على والدى حين أتذكر أسلوبه في تأليف «فجر الإسلام وضحاها وظهره»، وتنقيبه المنفرد المضنى في المصادر، وتقليبه في المراجع، دون عون من طلبة في كلية الآداب أو من كومبيوتر. غير أنى أعود فأقارن بين إنتاج أبى وكتاب جيله وبين

إنتاج هؤلاء الأساتذة الذين لم يتحدث عنهم، أو بين مؤلفات المستشرقين القدامى من أمثال هاميلتون جيب وبين بحوث «المتخصصين» الأمريكيين اليوم فى الدراسات العربية أو الإسلامية، فيختفى على الفور ذلك الإحساس بالإشفاق.. وإذ المس رداءة أسلوب هؤلاء الأخيرين فى الكتابة، وافتقارهم إلى أدنى قدر من الموهبة الأدبية، أتذكر كيف كان المؤرخون والاقتصاديون وعلماء الفلك والطبيعة وغيرهم فى الماضى، من أمثال جاليليو وجيبون وآدم سميث وبيرك وهيوم وماكول وكارلايل ولوك، أدباء لا نزال نقرأ مؤلفاتهم لروعة أسلوبها، كما نقرأها للاستفادة من مضمونها.

(٣)

مصاريف الدراسة فى الجامعات الأمريكية هى من البهاظة بحيث لا يكاد يُتاح لغير أبناء الموسرين الالتحاق بها. أما الأمريكى العادى فإنه لمن الصعب على الأجنبى المثقف أن يدخل معه فى حديث جاد حول أى موضوع تقريباً، عدا المباريات الرياضية. فمعلوماتهم هى فى العادة نزرة ضحلة، خاصة عن العالم الخارجى. (أدخل مكتبة فى واشنطن فأسأل موظفة بها عما إذا كان لديهم قسم للكتب الخاصة بالشرق الأوسط، فتجيبنى فى حيرة: «الشرق الأوسط؟ وما الشرق الأوسط هذا؟ عندنا قسم للكتب عن الغرب الأوسط»، تعنى الغرب الأوسط فى الولايات المتحدة. وقد ذكر المؤرخ البريطانى الشهير إيريك هو بسباوم فى مقدمة كتابه الأخير «عصر التطرف» أنه أثناء إلقائه محاضرة فى إحدى الجامعات الأمريكية، ورد على لسانه ذكر الحرب العالمية الثانية، فانبرى أحد الطلبة النجباء يسأله: «تقول الحرب العالمية الثانية. هل نفهم من هذا أنه قد كانت هناك حرب عالمية أولى؟»!

فإن كان كونفوشيوس يقول: «كيف يمكن أن يفهم الدنيا من لا يفهم نفسه»، فإن لنا أيضا أن نتساءل: «كيف يمكن أن يحكم العالم من لا يعرفه ولا يفهمه؟».. التاريخ لا يعبتون به، (من إحصاء أجرى فى نوفمبر عام ١٩٩٤ تبين أن أثقل مادة على نفوس الطلبة الأمريكيين من بين خمسين مادة تدرّس فى المدارس والجامعات هى مادة التاريخ)؛ والجغرافيا لم تعد تدرّس فى معظم المدارس الحكومية، والأدب يخجل الأمريكى المؤمن بأهمية العلم أن يعترف بأنه مغرم به، فى حين قد يجلب له الشغف بقراءة الشعر شُبْهة الشذوذ الجنسى. أما تعلّم اللغات الأجنبية فلا يأتية منه غير الصداق، ثم ما الداعى إليه ما دامت الدنيا بأسرها قد باتت تعرف الإنجليزية؟ وأما السياسة فأمرها لديهم سهل، وبالوسع تلخيصها فى جملة واحدة: إما «نحن»، أعظم دولة فى العالم، بل فى التاريخ كله، وإما «هم»، أى الأجانب الذين يتحرّقون شوقا إلى الهجرة إلى الولايات المتحدة، ويحسدون الأمريكيين على وفرة المعروض عليهم فى السوق من أصناف الجبن أو السردين أو صابون الغسيل، وعلى الحرية المكفولة لهم أثناء الانتخابات فى الانتخاب بين مرشحي حزبين لا اختلاف بينهما، ويكاد الشبه بينهما لا يزيد عن الشبه بين حبتين من البازلاء، حتى بات يقال إن الحزبين الحقيقيين فى الولايات المتحدة هما حزب الذين يدلون فى الانتخابات بأصواتهم لصالح المرشحين الديموقراطيين أو الجمهوريين، وحزب الذين يفهمون حقيقة الأمور فيحجمون عن الاشتراك فى التصويت؛ وهما حزبان يكادان أن يكونا متكافئى العدد!

(٤)

قبل العقد السابع من هذا القرن لم تكن الجماهير العريضة فى الولايات المتحدة لتعرف أسماء أكثر من حفنة صغيرة (ستة أو سبعة) من المؤلفين الأمريكيين المعاصرين، تمامًا كما كان الحال فى مصر قبل ثورة عام ١٩٥٢.. أما اليوم فقد باتت الشهرة تأتى الكاتب أحيانًا بين ليلة وضحاها، وغدا العشرات من الروائيين والشعراء والنقاد معروفين لدى الملايين، لا بفضل إقبال مفاجئ من الناس على القراءة، (فإحصاءات دكتور جالوب تشير إلى أن خمسين فى المائة من الأمريكيين لم يقرأوا كتابًا واحدًا بعد انتهاء سنّى دراستهم فى المدرسة أو الجامعة)، وإنما بفضل ذلك الجهاز المهيمن على الحياة الأمريكية، ألا وهو التلفزيون، الذى لا ينقطع إرساله اليومى طوال أربع وعشرين ساعة، والذى يحتاج دوام إرساله إلى ملء الفراغات الزمنية، خاصة بالأحاديث التى من شأنها تحقيق نوع من التوازن مع البرامج الترفيهية.

وقد تبين عند السعى لملء الفراغات بالأحاديث أن الأدباء هم أقدر عليها من غيرهم (من السياسيين مثلاً وهم الحريصون على عدم التورط فى إدلائهم بالتصريحات، أو الممثلين والممثلات ونجوم الغناء والرقص والرياضة ممن يفتقر معظمهم إلى الفكر والثقافة)، ومن أكثر الطوائف ترحيبًا بالظهور فى التلفزيون وأوسعهم وقتاً له. وقد كان مُدْ بدأ التلفزيون يستضيفهم، أن ناك هؤلاء الكتاب من الشهرة ما لم ينالوه من قبل، وأن ناك صغارهم منها ما لم ينله أكابر المؤلفين وأعمقهم وأعظمهم موهبة فى عصر ما قبل التلفزيون.

وقد خلق هذا الوضع الجديد مشكلة وحيرة لدى هؤلاء الأدباء أنفسهم ولدى المعجبين بهم من القراء ممن يرون من قبيل الإجزاء بالأديب الكبير أن يسمح بتعريض نفسه لأسئلة تافهة يوجهها إليه مذيع «هايف»، حتى تتفرج عليه الملايين ممن لا فكرة لديهم عنه سوى أنه «من أولئك الذين يكتبون الكتب».. والغالب أن يرد الأديب الكبير على هذا بقوله إن ظهوره أمام الملايين على شاشة التلفزيون من شأنه أن يزيد من توزيع مؤلفاته، أو يخدم تجارة الكتب، أو يساهم في تثقيف عامة الناس.. غير أن المؤكد أنه ليس ثمة دليل حتى الآن على أن ظهور الأدباء فى التلفزيون أدى إلى زيادة المبيعات من الروايات أو دواوين الشعر. فمعظم من يتفرجون على التلفزيون أناس لا يقرءون أصلاً، بل وقد لا يصلحون أصلاً للقيام بأى شيء آخر! غير أن هذه الحقيقة لا تثبط من همّة الأدباء الذين يؤمنون بأنهم متى ظهوروا مراراً فى التلفزيون، ومتى أحسنوا الحديث فى كل مرة يظهرون فيها، فقد يكتسبون شعبية تعادل أو تقارب شعبية لاعبي الكرة أو الممثلين والمغنيين والراقصين، فيقبل الناس على شراء كتبهم الجديدة، (فى حالة توفر الوقت لديهم بعد الظهور فى التلفزيون لتأليف كتب جديدة!).

غير أنه حتى لو أن الكاتب الذى يحسن الحديث ظل يحسن الكتابة، فإن ثمة من يعتقد أن الشهرة مفسدة له. والأمريكيون بصفة عامة، وفى قرارة أنفسهم، يفضلون لو ظل أدباؤهم الجادون مغمورين، وحبذا لو كانوا فقراء، بل وحبذا أيضاً لو أنهم يعانون من إدمان الخمر أو المخدرات. (كتب الروائى الأمريكى اليسارى أبتون سينكلير الذى عاش إلى ما بعد التسعين يقول: إن معظم من عرفهم من الكتاب الأمريكيين

توفى بسبب الإفراط فى تعاطى الخمس). فالفكرة الأمريكية التقليدية عن الأديب أنه إنسان غريب فى وطنه وفى أهله، قد اختار اعتزال العالم إلى حجرة مكتبه حتى يتسنى له أن يكتب «فى هدوء».. غير أن هذا الوضع تغيّر تغيراً جذرياً منذ بداية الستينيات، ومنذ انتخاب جون كينيدي على وجه التحديد.. ذلك أنه بالرغم من أن ذلك الرئيس الشاب لم يكن واسع الثقافة (كان الأديب الأثير عنده هو إيان فليمنج مؤلف روايات جيمس بوند)، فقد كان يبدو كالمتقف، وكان بوسعه أن يميز بين كتابات سول بيلو وكتابات إيروين شو.. غير أن الأهم من ذلك أنه كان يدرك حاجة إدارته إلى تعضيد الكتاب ومساندة مشاهيرهم لسياساته الجريئة. لذلك فقد سعى إلى التقرب إليهم، والتودّد خاصة إلى من اكتسبوا الشعبية واسعة النطاق من خلال أحاديثهم التلفزيونية.

تحقّق الكثيرون من الكتاب الأمريكيين لكينيدي حتى من قبل انتخابه، وأسهموا إسهاماً إيجابياً فى حملته الانتخابية، وصاروا فى عهد رئاسته يتلقون الدعوات الكثيرة إلى مآدب البيت الأبيض.. ثم كان أن أحس الأدباء بارتقاء مكانتهم عند رجال السياسة، وبدأ تطلّعهم إلى أن يكون لهم دور مؤثر فيها، وفى تكييف الرأى العام وتوجيهه، ونشر أفكارهم عن حياة أفضل. فالكاتب الذى يجيد الحديث فى التلفزيون بوسعه أن يخلّف فى نفوس المستمعين تأثيراً أعمق من تأثير معظم السياسيين: فهو ليس بذائع الصيت فحسب، وإنما هو أيضاً حرّ الفكر والمعتقدات لا يعمل لحساب أحد، ولا يطمح إلى ضمان انتخابه لفترة ثانية، ولا يتحدث فى العادة إلا بوحى من ضميره.

وثمة فضل آخر على الأدب الأمريكى نجم عن ذبوع الصيت الذى هياه التلفزيونيون للأدباء. ذلك أن اختراع التلفزيون وتعاظم انتشاره

وشعبيته أحدثا أزمة حادة وضائقة كبيرة لدى المجلات الشهرية والفصلية التي تأثر حجم توزيعها من جرّاء هذا الاختراع، حتى أشرفت على الإفلاس. وقد قضى رؤساء التحرير الجدد لهذه المجلات (ومعظمهم من الشباب) زمنا يقدحون فيه زناد فكرهم من أجل الاهتداء إلى أفضل السبل لإبقاء مجلاتهم على قيد الحياة وإنقاذ الموقف. وكان أن تفتّحت قرائحهم عن فكرة الاستئناء عن الكتاب السطحيين الذين اعتادوا أن يملئوا الصفحات بقصص فكاهية أو غرامية أو قصص المغامرات التي لا ترضى غير ربات البيوت والتي كانت دائماً مثار احتقار المثقفين، واستكتاب كبار الأدباء الذين حقق لهم ظهورهم المتكرر في التليفزيون شهرة كبيرة.. وكانت النتيجة أن ارتقى مستوى هذه المجلات الشهرية والفصلية، وأن زاد إقبال الشباب من المثقفين الأمريكيين على شرائها، فزاد اطمئنان ناشريها إلى صواب فكرتهم، خاصة أن سن السابعة والعشرين هو متوسط سن أكثر الأمريكيين إقبالا على الاستهلاك وعلى القراءة معا.



يقول جوته:

«تنمو الموهبة مع الهدوء والسكون، وتنمو الشخصية بخوض معترك الحياة».

غير أن الواقع أن خوض معترك الحياة، والاتصال عن قرب بالعالم الخارجى، لا يعنيان بالضرورة إفساد شخصية الأديب أو إفساد أدبه وفقدانه موهبته وترهله الفكرى، حتى إن اعترفنا بأنهما يضيعان الكثير من وقته ويفقدانه بعض الهدوء اللازم للإنتاج. ذلك أنه متى كانت

تجارب الأديب محدودة بسبب انعزاله عن العالم الخارجى، مال فى أدبه إلى الاقتصار على وصف عالمه الشخصى والداخلى، فيضحى كالمعدة تتغذى على نفسها حتى تصيبها القرحة. أما وقد بدأ الأدباء الأمريكيون فى الثلث الأخير من هذا القرن يميلون إلى خوض مععة الحياة، ويبعدون اهتمامًا ملحوظًا بالمسائل السياسية والاجتماعية والاقتصادية الكبرى، ويستوعبون حقائق العالم خارج حدود بلادهم، فلا شك فى أنهم سيستوعبون من خلال كل ذلك من الحقائق الجديدة واسعة النطاق ما من شأنه أن يضمنى أبعادًا جديدة على مؤلفاتهم.

خواطر وانطباعات من واشنجنطون

- ٢ -

(١)

ما من يوم يمرّ علىّ هنا في الولايات المتحدة إلا قفزت فيه إلى ذهني
قولة معاوية: «لا تُنال نعمة إلا بفقدان أخرى»..

رخاء وسعة في العيش؟ إشباع شبه كامل للاحتياجات المادية لدى
غالبية أفراد الشعب؟ تقدم مذهل في العلم والتكنولوجيا؟ سهولة الحياة
وخلوها من المكدرات البيروقراطية؟ حرية فردية في السلوك والتعبير عن
الذات تكاد أن تكون مطلقة؟ نعم.. ولكنني أجدني إزاء كل هذه الإنجازات
غير قادر على قبول فكرة أن يكون هذا هو هدف الحياة البشرية، أو المثل
الأعلى..

ومع ذلك، فثمة سر لا محالة في هذا النمط من الحياة جعل مختلف
الشعوب خارج الولايات المتحدة تنظر إلى هذا النمط باعتباره المثل الأعلى،
ليس فقط في دول نامية كمصر التي قد يرى البعض فيها في افتتاح
مطعمين أو ثلاثة لسندوتشات مكدونالد بوانر حل قريب حاسم لمشاكل
البلد الاقتصادية والاجتماعية (وربما السياسية أيضا!)، وإنما أيضا في
دول هي في رأيي أرقى حضارياً من الولايات المتحدة، مثل ألمانيا وفرنسا
وبريطانيا.. نعم هو إنجاز ضخم أن تصل الطبقة المتوسطة العريضة في
الولايات المتحدة إلى مثل هذا النعيم المادي. ولكن هذه الطبقة تكاد تتمتع
في الدول الأوروبية الكبرى بمثل هذا النعيم دون أن تعطى الانطباع الذي

تعطيه الولايات المتحدة من أن كسب المال هو الغرض الأعلى، وأن وسائل كسب هذا المال هي كل ما ينبغي للمواطنين أن يندشده.. قد تكون هذه النظرة مسئولة إلى حد كبير عن توفير هذا المستوى الرفيع من العيش. ولكن كيف يمكن أن يكون صاحبها مثلاً أعلى، أو يكون هدفه هدفاً للحياة البشرية؟..

ثمة بطبيعة الحال اهتمام من جانب السلطات بالفنون والعلوم.. يكفى أن تتأمل المتاحف العظيمة المختلفة على جانبي الطريق الطويل بين نصب لينكولن التذكاري ومبنى الكابيتول في واشنطنطون كي تدرك هذا.. غير أنه يكفى أيضاً أن تشير إلى ما ذكرته عن عزوف غالبية الأمريكيين عن القراءة، وضعف اهتمامهم بما يجرى خارج الولايات المتحدة، والتغطية الهزيلة للشئون الخارجية سواء في نشرات أخبار الإذاعة والتلفزيون، أو في الصحف حتى المحترمة منها مثل صحيفة «واشنطنطون بوست»، أو إلى أن عدد المكتبات في الولايات المتحدة عام ١٩٩٦ لم يزد عما كان عليه في القرن التاسع عشر، أو أن تستمع إلى الشكوى المتكررة من تدنى مستوى التعليم في المدارس الحكومية الأمريكية لدرجة أن نصف عدد الملتحقين الجدد بالجامعات لم يتمكنوا من الإشارة إلى موقع الولايات المتحدة في خريطة للعالم خالية من أسماء الدول!..

قد يكون حال الأمم كحال الأفراد: إن نبغوا في ميدان من الميادين فقد ينجم عن نبوغهم هذا ضمور في المواهب الأخرى، أو قد يكون هذا النبوغ نفسه ناجماً عن ضمور في المواهب الأخرى.. ولازلت أذكر جديداً لي مع كريستوفر ديكي مراسل مجلة «نيوزويك» في الشرق الأوسط في أغسطس عام ١٩٩٤، إذ يقول لي إنه يعتقد أن السبب الرئيسي في تخلف

المصريين (والعرب عامة) هو قوة ارتباطهم بعائلاتهم وبأعمالهم وبموطنهم، مما يشل من قدرتهم على الحركة، عكس الأمريكي الذي هو دومًا على استعداد للحركة والتنقل، ولهجر موطنه وعمله وعائلته إلى موقع آخر أكثر مناسبة لقدراته.. ثم ذكر لي كيف أنه أثناء تغطيته لآباء زلزال كبير في إيران، سأل أحد الإيرانيين في منطقة الزلزال عن عدد من فقدته من أقاربه فيه، فأجاب بقوله: مائة وعشرين! وأضاف المراسل إنه يتحدى أي أمريكي أن يذكر له أسماء ستة أو سبعة من أفراد أسرته..

أجل هو شعب يمكن أن يصفه الكثيرون بأنه شعب سعيد. أمرُّ بالناس في الشوارع فيبتسمون لي ابتسامة عريضة «دون مناسبة».. أركب الأوتوبيس فيحييني السائق تحية الصباح سائلًا إياي عن حالي، ويتمنى لي يومًا سعيدًا عند نزولي.. حديثهم إلى وإلى بعضهم بعضًا مليء بالمزاح أغلبه ضاحك.. أزور حديقة الحيوان فأشاهد فتاة تعمل بها وقد التفت حول جسدها ثعبان طويل مخيف يتلوى تعرضه على زوار الحديقة، حتى إذا حانت منها التفاتة إلى قصدت مكاني لتحادثني في براءة وحرية و«دون تكليف» عن تاريخ غرامها بالثعابين، وعن أنواعها السامة وغير السامة، وعن عاداتها وما تطعمها أياءه، ثم تقدم إلى رأس الثعبان كي أربت عليه.. أطل من نافذة حجرتي فيلمحني رجل عجوز في الشارع فيصيح بي: لماذا لا تنزل إلى الطريق لتتعم بدفء الشمس وبالهواء النقي.. أدخل مكتبة للكتب القديمة فيقدم لي صاحبها أثناء تفرجعي على الكتب فنجان قهوة وطبقا من البسكوت، فإن وقع اختياري على كتاب عن لينكولن أراني كل ما في مكتبته من كتب عن لينكولن، مادحًا بعضها وقادحًا في البعض..

(٧)

شعب هو فى مجموعه ودودٌ، ودودٌ، ودودٌ.. ولكن.. ماذا عما يعانى به الملايين من الأمريكيين من داء البارانويا، وتكرر توهمهم أن عدوا غامضًا يتربص لهم ويريد إلحاق الأذى بهم، آخذًا سمت اليهودى تارة، وتارة سمت الشيوعى وتارة سمت الجنس الأصغر، وتارة سمت الأصولى الإسلامى؟ هى ظاهرة فريدة يجد عقل السياسيين وأكثرهم رزانة من الصعوبة بمكان أن يحجموا عن استقلالها، والاستفادة لصالحهم من هذا الجنون الجماعى لدى الناخبين، بإيهامهم أنهم أقدر الناس على التصدى لهذا «الخطر» الذى يهدد «أسلوب الحياة الأمريكى»..

ثم ماذا عن تصريح أدلت به السيدة بريبارا برش فى حديث تليفزيونى لها عن كيف بات الإنسان الأمريكى اليوم فى حال من الخوف المستمر، سواء كان فى الطريق، أم فى مقر عمله، أم فى عقر داره؟ ماذا عما نشرته صحيفة «واشنطن تون بوسى» من أن أكثر من ثلث موظفى مكاتب البريد يقضون ساعات عملهم فى خوف دائم من السطو المسلح؟.. نعم هم يبتسمون لك ابتسامة عريضة فى الطريق. غير أنهم أيضًا يتلفتون وراءهم فى حذر وهم فى سيرهم أو واقفون على السلم الكهربائى المؤدى إلى قطارات الأنفاق، خشية اعتداء مفاجئ، أو سطو مباغت.. فعديل الجريمة فى الولايات المتحدة فى ارتفاع مطرد، بسبب البطالة، وتماطى المخدرات، وحسد الفقراء لبذخ عيش الأغنياء، وتأصل العنف فى طبيعة الإنسان الأمريكى.. أنا أدرك أن الحديث عن معدل الجريمة فى الولايات المتحدة شاسعة المساحة هو كحديثك عن معدلها فى مجموع الدول الأوروبية من موسكو إلى لندن.. غير أن عدد الجرائم فى العاصمة

الأمريكية وحدها فى العام الواحد يفوق عددها فى القطر المصرى كله فى نفس الفترة الزمنية. والجرائم تُفرد للجرائم كل يوم صفحات أكثر مما تفردهُ للأنباء الخارجية، وثلاثة أرباع مدة نشرة الأخبار فى الإذاعة والتلفزيون مخصصة لجرائم السطو والاعتصاب والقتل والسرقه والاعتداء الجنسى على الأطفال، بحيث يخيّل إلى المرء أن الجريمة أهم مظهر من مظاهر الحياة الأمريكية، وبحيث بات توقع الأذى المفاجئ من المعتدين جزءًا لا يتجزأ من تفكير المواطنين، سائرين كانوا على أقدامهم فى الطريق، أو راكبين سياراتهم، أو جالسين فى حديقة عامة، أو حتى قابعين فى عقر دورهم.. وقد شغلت وسائل الإعلام هنا الشعب (والعالم) على مدى عام أو نحو عام بقضية أو. جى. سيمبسون قاتل مطلّقه وصديقها، كما شغلته مدة طويلة بقصة أم فى الثالثة والعشرين بولاية كارولاينا الجنوبية (سوزان سميت) ذكرت للشرطة أن أمريكيا أسود اعترض سيارتها عند إشارة مرور، وأمرها تحت تهديد السلاح أن تغادر السيارة وتتركها له، رافضًا أن يسمح لها بأن تأخذ ولديها الجالسين فى المقعد الخلفى بحجة أنه ليس لديه وقت، ثم انطلق بالسيارة والطفلين إلى جهة غير معلومة.. ظل الشعب الأمريكى بأسره طيلة تسعة أيام يتابع فى وسائل الإعلام أخبار بحث المواطنين والشرطة عن السيارة والجاني فى طول البلاد وعرضها، ويشاهد الأم فى التلفزيون تبكى وتتضرع إلى خاطف ولديها أن يردهما إليها، فيبكي الأمريكيون معها ويدعون بالسلامة للطفلين.. ثم إذا بها فى اليوم العاشر، وبعد اكتشاف الشرطة فى غرفة نومها خطابا موجها إليها من عشيقها يخبرها فيه أنه عدل عن فكرة الزواج منها بعد تطليقها من زوجها لعدم استعداده لتحمل مسئولية

أطفال لها من غيره، تعترف للشرطة بأنها هي التي قتلت ولديها باغراقهما وهما في السيارة في بحيرة خارج بلدتها.. وقد زاد من هول وقع هذه الجريمة في نفوس الأمريكيين أن يذاع في نفس الأسبوع الذى أغرقت فيه سوزان سميث طفليها، أن امرأة أمريكية أخرى قتلت ابنتها الصبية إرضاء لزوجها الجديد..

(٣)

أمر آخر صدمنى هنا أثناء متابعتى للحملة الانتخابية الرئاسية، وجملنى أوقن بافتقار النظام السياسى الأمريكى إلى الكفاءة والصلاحية، بل وإلى القدرة على الصمود والثبات..

فالحياة الحزبية فى تدهور مطرد، وقد بات الحزبان السياسيان الرئيسيان مجرد إطار لانتقاء المرشحين لخوض الانتخابات. وحيث أن الحزبين: الديموقراطى والجمهورى، لا يقومان إلا على خدمة مصالح كبار ملاك الثروة (وهم أصحاب اليد الطولى فى إدارة سياسة الدولة «من وراء ستار»)، فإنه ليس أمام الناخبين من أفراد الشعب أى اختيار حقيقى، سواء فى انتخابات الكونجرس؛ أو حكام الولايات، أو رئاسة الجمهورية.. فالمصالح الخاصة لطبقة معينة محدودة هى التى تهيم على النظام السياسى الأمريكى. بل إن النظام السياسى الأمريكى نفسه هو من ابتكار المصالح الخاصة لطبقة رأت استبعاد عامة الشعب من ممارسة السلطة، ولن تقبل أبداً (عن طيب خاطر) إحداث تغيير فى هذا الوضع..

كتب السياسى البارز الكسندر هاميلتون أثناء مناقشة الدستور الأمريكى فى أواخر القرن الثامن عشر:

«يقال إن صوت الشعب هو صوت الله. وهى مقولة غير صحيحة. فالشعب متقلب متغير، نادرًا ما يقدر على الحكم الصائب أو معرفة الحق. ولذا فإنه من المصلحة إعطاء الأغنياء ونبلاء المحتد نصيبًا متميزًا ودائمًا من الحكم»..

وقد كان أن سمح الدستور الأمريكى للملكيات الكبيرة بأن تحكم البلاد كما تهوى - إلى حد بعيد - دون مسئولية تجاه الشعب أو أية جهة أخرى. فالدولة - كما ذهب الفيلسوف الألماني هيردر - «هى لضمان سعادة جماعة معينة، وما من دولة حتى اليوم سمحت عن طيب خاطر بأن تنتقل هذه السعادة إلى غير الجماعة التى تهيمن عليها».. وقد تنبأ توماس جيفرسون منذ البداية بتدهور النظام السياسى الأمريكى، ونصح باجتماع مؤتمر دستورى مع كل جيل على الأقل لتعديل الدستور بحيث يوائم الأوضاع المستجدة، والاحتياجات المتغيرة. «فالقوانين والأنظمة يجب أن تسير جنباً إلى جنب مع تطور العقل البشرى. وكلما غدا هذا العقل أكثر استثارة ونضجاً مع اكتشاف الحقائق الجديدة، وتغير العادات والآراء بتغير الظروف، غدا من المحتم تطوير المؤسسات لتساير الزمن. أما مطالبة المجتمع بأن يظل دوماً تحت أنظمة أسلافه، فهى كمطالبة الرجل بالاستمرار فى ارتداء المعطف الذى كان يرتديه وهو صبي»..

غير أن نصيحة جيفرسون لم يؤخذ بها، ولو عاد الرجل إلى الولايات المتحدة اليوم لأذهله أن يرى المواطن الأمريكى فى معطفه القديم غير قادر على تحريك ذراعيه، وأن يرى طبيعة النظام الحزبى على ما كانت عليه منذ البداية: أصحاب الثروات الطائلة تتحكم فى الحزبين الرئيسيين

والحزبان الرئيسيان يتحكمان في الدولة، والدولة تجمع الضرائب من الشعب، وترد إليه جزءاً بسيطاً منها لمجرد تجنب تمرده، فى حين تحتفظ بالنصيب الأكبر «لنفقات الدفاع»، وهو نصيب يعود فى خاتمة المطاف إلى أصحاب الثروات الطائلة من الحكام الحقيقيين..

لذا فإن أغبى إنسان هنا يدرك بوضوح أنه كيفما كان تصويته فى انتخابات الرئاسة أو الكونجرس أو حكام الولايات، فلن تمثل مصالحه، ولن يكون لهذه المصالح أى اعتبار لدى الفائزين فى الانتخابات، وأن الأوليغاركية الحاكمة لا تخدم إلا نفسها.. وهو ما يفسر لنا ظاهرة عزوف ما بين ٤٥٪ و ٥٠٪ ممن لهم حق الانتخاب عن ممارسة حقهم، رغم كل ما يدور من أنشطة ودعايات، وضجيج ومهرجانات، وخطب رنانة ومسيرات، عشية أية انتخابات. وثمة حالياً من الدلائل ما يشير إلى أن هذا الشعب قد بدأ يفقد صبره إزاء هذا الوضع، وبدأ يُظهر امتعاضه وسخطه على كل هذا الإنفاق السخى على التسليح.. وما كان تصويته فى انتخابات نوفمبر ٩٤ لصالح الجمهوريين المعارضين حبا للحزب الجمهورى، وإنما كان عن كراهية للحزب الديموقراطى الحاكم، تماماً كما كان تصويت الجزائريين لصالح الجبهة الإسلامية للإنقاذ فى انتخابات ديسمبر ١٩٩١، لا عن ثقة فى الجبهة، وإنما عن كراهية وفقدان للثقة فى حزب التحرير الحاكم..

(٤)

يقول تولستوى: «لو أن عصفوراً هَجَرَ الطيران وشُغِفَ بركوب الدراجة، جاء إلى يشكو مما ينتابه بين الحين والحين من اضطرابات

عصبية» ويطلب منى أن أصف له الدواء، لما لبيت طلبه، ولأمرته في غضب أن يعود إلى ما خُلق من أجله»..

وفي ظني أن هذه المقولة لتولستوى تنطبق تمامًا على النمط الأمريكي في الحياة: حشدٌ من المشكلات الحيوية، وحشدٌ من الحلول المقترحة لهذه المشكلات «دون أدنى إشارة إلى أن المُحل المنشودة والأغراض المتوخاة، مهما كان بريقتها، ومهما كان سحرها، ليست مما خُلق الإنسان له»..

خواطر وانطباعات من واشنجنطون

- ٣ -

(١)

البعض خارج الولايات المتحدة يذهب إلى أن العالم يعيش الآن في ظل «السلام الأمريكى»، ويقارنه بالسلام الرومانى فى زمن أغسطس قيصر وخلفائه.. غير أن هذا غير صحيح.. والتشبيه الأقرب إلى الحقيقة هو تشبيه الولايات المتحدة الآن بجمهورية البندقية بعد أن سقطت الإمبراطورية البيزنطية على يد محمد الفاتح، فخلفتها على الكثير من مستعمراتها السابقة، تماما كما خلقت الولايات المتحدة بريطانيا بعد تصفية إمبراطوريتها. فقد كانت جمهورية البندقية آنذاك - شأن الولايات المتحدة الآن - دولة لا هم لها غير الثروة والرخاء المادى والتجارة، والحفاظ على السلام كسبيل للحفاظ على الثروة والرخاء وحماية التجارة.. لم تكن لدى تلك الجمهورية رسالة تُلهب المخيلة وتثير الحماس، غير أنها نجحت فى تحقيق أغراضها، واكتفت بهذا النجاح.. وكذا الولايات المتحدة.. لم تكن الشيوعية أبدا لتشكل خطراً عليها. ولا هو الإسلام السياسى يتهدها الآن. وإنما يشكل الخطر الأوحـد الآن عليها تزايد الثروة والكفاءة والمهارات لدى «جمهوريات» أخرى تريد أن تنتهز فرصة التدهور الملحوظ فى المستوى الثقافى والأخلاقى فى الولايات المتحدة، فتحاول انتزاع الأسواق الخارجية منها. وهو ما قد تفعله اليابان فى يوم قريب، أو ألمانيا والجماعة الأوروبية..

لن تكون نهاية الولايات المتحدة إذن على يد قنبلة نووية، وإنما على يد عملة أقوى من الدولار. والقادة الأمريكيون يعلمون جيداً أنهم

لا يجاهدون من أجل «عالم حر»، وإنما من أجل حماية إمبراطورية اقتصادية ليس من صالح الأمريكيين أن يفروا فيها، أو أن يدعوها تسقط في يد آخرين..



إن أية مساعدة تقدمها الولايات المتحدة لهذا النظام الأجنبي أوداك، تزيد من ارتباطه بها، واعتماده عليها، شاء ذلك أم أباه، أقرَّ به أم أخفاه، رضى عنه أم سخط عليه.. ذلك أن الولايات المتحدة إن قدمت القروض إليه لبناء مصنع مثلا، فلا بد أن يعود إليها يومًا في طلب قطع الغيار لآلاته، أو الفنيين والخبراء لتجديده أو تنشيط إنتاجه، وهو ما يعود بالنفع على الاقتصاد الأمريكي ويساعده على التوسع.. وهذا هو كل ما وراء البرنامج الأمريكي للمساعدات الخارجية. فإمبراطوريات اليوم لا تُدار بالسيف، وإنما يُديرها الدولار.. والأمريكيون لا يسعون إلا وراء كسب المزيد من الدولارات، والمحافظة على مستوى معيشتهم، ولا هدف قومي لهم غير هذا.. لا المجد يُغريهم، ولا حقوق الإنسان تشغل بالهم، ولا رسالة يشعرون بأنهم مطالبون بتبليغها إلى العالم أجمع. وهذا الموقف المادى هو بالضبط سر نجاحهم المادى، وهو فى رأيهم الموقف الصحى الأمثل من العالم الخارجى..

(٢)

بعد هزيمة اليابان عام ١٩٤٥، كان أمام الولايات المتحدة خياران: إما نزع السلاح والاستمتاع بالرخاء الناجم عن تحويل الثروة والطاقة من ميدان التسلح إلى القطاع الخاص (وهو ما فعلته بعد الحرب العالمية

الأولى)، أو الاستمرار في التسلح وإحكام القبضة لا على حلفائها ودول المحور المهزومة فحسب، وإنما أيضا على الحياة الاقتصادية (والسياسية) داخل الولايات المتحدة نفسها.. وقد كانت إحدى نقاط التحول الهامة في التاريخ الأمريكي خطبة ألقاها الرئيس هارى ترومان في ١٢ مارس ١٩٤٧، أعلن فيها أن بلاده تنوى مراقبة كل حدود الاتحاد السوفييتي والدول الدائرة في فلكه، ومساعدة كافة الأنظمة - أيها كانت طبيعتها، فاشية كانت أم ديمقراطية، غاشمة أم مستنيرة، متى أظهرت وأثبتت عزمها على الوقوف في وجه التوسع السوفييتي، والحيولة دون انتشار الشيوعية، حتى إن أدت مثل هذه المساعدة إلى احتمال نشوب حرب عالمية جديدة.. وقد رحبت الدوائر العسكرية الأمريكية بهذا الاتجاه الذي يبرر زيادة الإنفاق الحربى باسم حرب مقدسة ضد الشيوعية. ولا يهم بعد ذلك ما إذا كان الاتحاد السوفييتي وقتها يشكل أو لا يشكل خطراً عسكرياً أو اقتصادياً على الولايات المتحدة أو العالم المسمى بالحر، وإنما المهم هو تضخيم هذا الخطر والإيهام به، من أجل خلق «دولة الأمن القومى» فى الولايات المتحدة، وهى الدولة التى لاتزال قائمة إلى اليوم بعد نحو نصف قرن من إرساء قواعدها، والتى لا تشبه فى كثير أو قليل صورة الولايات المتحدة فى أية مرحلة سابقة من تاريخها.

وقد نصح السيناتور آرثر فاندنبرج الجمهورى الرئيس الديموقراطى ترومان وقتها بأنه إن كان حقاً يريد إنتاج كل تلك الأسلحة، وفرض الضرائب الباهظة على الشعب من أجل إنتاجها، فعليه أن يعمل جاهداً من أجل إثارة مخاوف الشعب الأمريكى من الخطر الشيوعى. وقد استجاب ترومان لهذا النصح، وشرع منذ ٢٣ أكتوبر ١٩٤٧ يلقي الخطبة

إثر الخطبة عن الخطر الأحمر الذى يُهدد بابتلاع فرنسا وإيطاليا، ويثير الفزع فى قلوب الأمريكين، وهى سياسة سار عليها خلفاؤه، عدا فترة قصيرة فى أواخر عهد أيزنهاور الذى انبرى فى لحظة صدق يحذر شعبه من احتمالات هيمنة دائمة على الدولة من جانب العسكريين وكبار رجال الصناعة والمال..

بدا الأمر فى ظاهره وكأن الحكومة الأمريكية لا شاغل لها إلا حماية حرية رعاياها ورعايا الدول الحليفة من خطر عدو رهيب عظيم البأس، فى حين كان الخطر الحقيقى يتمثل فى سادة دولة الأمن القومى الذين تمكنوا من الإمساك بكافة مقاليد الأمور فى الولايات المتحدة حتى فى زمن السلم، وراحوا يدبرون الانقلابات ضد الأنظمة الأجنبية التى لا يرضون عنها، أو يثيرون المتاعب لها، (ومنها نظام عبد الناصر فى مصر)، ويزيدون من الضرائب على الشعب من أجل خدمة جماعتهم الصغيرة، وبحجة الحاجة الماسة إلى تعزيز وسائل الدفاع..

وقد كان أن خاضت الولايات المتحدة منذ زمن ثرومان، وبوصفها زعيمة «العالم الحر»، حروباً مباشرة أو غير مباشرة فى كل من كوريا وفيتنام وكمبوديا ولاوس، والبحر الكاريبى وأمريكا الوسطى، وأفريقيا وشيلي والشرق الأوسط. الخ، كلها أو جُلّها باسم الحرية والديموقراطية وحقوق الإنسان، ولمساندة أنظمة معظمها ينتهك فى بلادها مبادئ الحرية والديموقراطية وحقوق الإنسان. وقد كانت الولايات المتحدة فى كل مرة تساند فيها نظاماً فاشياً (أو شمولياً) تتذرع بحجة أن ذلك النظام يتبنى العقيدة القومية الأمريكية، وهى العداء للشيوعية..

وحيث أن الولايات المتحدة لا تعرف نظامًا حزبيًا حقيقيًا على غرار الأحزاب السياسية في أوروبا الغربية، ولا تكاد المعارضة فيها تعرف سبيلًا إلى وسائل الإعلام، فإن تلك الحروب الأمريكية في الخارج كانت تبدو دائمًا وكأنها هي تتمتع بموافقة جماعية في الداخل. فالكونجرس يوفر الأموال للبنتاجون، والبنتاجون يلبي مطالب سادة دولة الأمن القومي. والمعارضون لا تُنشر مقالاتهم في الصحف، ولا يُستدعون للحديث في الإذاعة والتلفزيون، ودور النشر تحجم في العادة عن نشر كتبهم أو تطالبهم بحذف فصول أو تغيير مضمون فصول، ووسائل الإعلام كافة تصور المعارضة على أنها تافهة هامشية، أو خبيثة شيطانية، مغلفة حقيقة أساسية هامة: هي أن كل الحروب التي خاضتها الولايات المتحدة منذ عام ١٩٤٥ كانت بأمر السلطة التنفيذية، فهي بالتالي غير دستورية، حيث أن الدستور ينص صراحة على أن الكونجرس وحده هو صاحب الحق في إعلان الحرب.

(٣)

إن الأمريكي العادي على دراية دقيقة واسعة بمصالحه الشخصية، ويدرك بوضوح أن نوعية الحياة في بلاده في تدهور، وأنه - بسبب هذا التدهور - يعيش في قلق مستمر من أن يستغنى عنه رب العمل في أية لحظة. أما عن الأسباب الحقيقية لهذا التدهور فما من أحد يشرحها له، بالنظر إلى أن سادة البلاد من أصحاب الثروات الضخمة يتحكمون تحكما كليًا في وسائل الإعلام، وفي مناهج التعليم..

كتب الفيلسوف الإنجليزي ديفيد هيوم عام ١٧٥٨ يقول: «ليس هناك ما يبدو أكثر غرابة في أحوال البشر من سهولة حكم القلة للكثرة،

وخضوع الجماهير الغفيرة لعدد ضئيل من الحكام. فإن فتشنا عن سبب ذلك تبين أن القوة دائماً هي فى جانب المحكومين، وأن الحكام لا يستندون إلا إلى رضا الرأى العام، سواء فى أشد الأنظمة طغياناً أو أكثرها حرية وشعبية»..

والواقع أن قدرة السادة الأمريكيين من أصحاب الثروات على إحكام قبضتهم على الرأى العام وعلى تكييفه، من أكثر مظاهر الحياة الأمريكية إثارة لعجب سائر العالم الغربى. فما من دولة من دول العالم الأول نجحت مثل هذا النجاح الباهر فى أن تستأصل من كافة وسائل الإعلام أى اتجاه إلى الموضوعية، وأى ميل إلى المعارضة.. صحيح أن بوسع أى مواطن أمريكى ذكى، متى توفر لديه الوقت والطاقة، أن يصل إلى حقيقة الأمور. غير أن الأكثرية لا فائض وقت لديها ولا فائض طاقة يمكنها من تحصيل الأخبار من خارج وسائل الإعلام. وأخبار وسائل الإعلام - شأن الإعلانات التجارية - لا هم لها إلا إبقاء جموع الشعب على وداعتها، ورضاها وطاعتها، ونهمها إلى استهلاك السلع أوحيازتها..



أهم هذه الوسائل طرا (لتسويق السلع وتكييف الرأى العام) هو التلفزيون. فالأسرة الأمريكية العادية تدير التلفزيون فى مسكنها قرابة سبع ساعات فى اليوم، مما يعنى أن الأمريكى متى بلغ سن السابعة عشرة يكون قد شاهد نحو ثلاثمائة وخمسين ألف إعلان تجارى تكييف بها سلوكه الاستهلاكى. وثمة ما يمكن تسميته بالمكتب السياسى (بوليتيبورو) أو مجمع الكرادلة يتحكم تحكماً صارماً دقيقاً فيما ينبغى

للمواطنين أن يعرفوه وما ينبغي ألا يعرفوه. فهو الذى يحدد ما على السياسيين وقت الانتخابات أن يقولوه، ويحرص بالأخص على أن يخفى عن الشعب حقيقة أن أكثر من ثلثي إيرادات الحكومة الفيدرالية وقت السلم ينفق على الدفاع والتسلح، وعلى عدم السماح للمعارضين بشدة للنظام بالظهور فى التلفزيون فيدرك المستمعون إليهم أن ثمة وجهات نظر أخرى غير وجهة النظر التى يروج النظام لها. فإن كان لابد من السماح لمعارض (معتدل) بالحديث فى التلفزيون للحفاظ على دعوى حرية التعبير عن الرأى، فليكن ظهوره بعد منتصف الليل والناس نياما..

والتلفزيون هو المكلف من قبل السادة المستفيدين من تجارة السلاح باكتشاف العدو إثر العدو لنمط الحياة الأمريكية ولشعب الولايات المتحدة. أو كما قال البرت أينشتاين عام ١٩٥٠: «إن أصحاب السلطة الحقيقية فى الولايات المتحدة لا نية لديهم أن يُنْهَوْا الحرب الباردة أبدا». فإن انقضى خطر الاتحاد السوفييتى والشيوعية فهناك الجماعة الأوروبية أو اليابان، أو العرب أو الإسلام. والظاهر أن المواطن الأمريكى العادى لديه حاجة نفسية ملحة إلى أن تطلعه جهة عليا على هوية عدوه الجديد، واقتناع عميق الجذور بأنه لابد أن ثمة عدوا له يترصد به.. أيرجع ذلك إلى إحساسه بأن العالم الجائع خارج بلاده يحسده على ارتفاع مستوى معيشته؟ فماذا إذن عن دول أوروبا الغربية ذات مستوى المعيشة المرتفع؟ أم أن تلك الدول الأخيرة هى الآن أيضا قد بات يخامرها نفس الإحساس بالخطر، مما دفعها مؤخرا إلى فرض القيود المشددة على هجرة أفراد من العالم الثالث إليها؟ لا أدرى. غير أن إحدى قصائد الشاعر الإسكندرى اليونانى، قنسططين كفاى تحضرنى فى هذا المقام: وهى عن مدينة

هيلينية يعيش أهلها فى هلع دائم من هجوم البرابرة. غير أن البرابرة لا يأتون. ثم يتضح فى النهاية أن أهل المدينة هم البرابرة فى واقع الأمر، فإذا هم أثناء انتظارهم لوقوع الهجوم من خارجها يذبح بعضهم بعضًا داخل أسوار المدينة!..

(٤)

لقد قضت إرادة الولايات المتحدة بعد انتصار الحلفاء فى الحرب العالمية الثانية ألا تكون لألمانيا أو اليابان مؤسسة عسكرية. وكانت نتيجة إعفاء الاقتصاديين الألمان واليابانيين من أعباء الإنفاق العسكرى أن أصبحا اليوم فى مقدمة اقتصاديات الدول الأخرى. وقد ظلت دول أوروبا الغربية على مدى نحو نصف قرن تعتمد فى حمايتها من الشيوعية ومن البرابرة الروس على القوة النووية الأمريكية.. ثم إذا بالروس فى نهاية الأمر يهجعون الشيوعية من تلقاء أنفسهم، ويتحولون إلى محاولة كسب رضا الولايات المتحدة ودول أوروبا الغربية وضمان مساعدتها لهم!..

فما الحل إذن وقد زال الخطر الأحمر؟..

الإسلام هو الحل!..!

فوسائل الإعلام هنا لا تكف عن تصوير خطر الأصوليين الإسلاميين الداهم، لا على بلادهم هم فحسب، بل وعلى الحضارة والبشرية جمعاء. والاعتماد الكامل فى هذا التصوير هو على فريقين من الناس أعتبرهما أقل العناصر قدرة على فهم حقيقة الأوضاع، وأعنى الصحفيين المولعين بالتهويل، والأكاديميين من أساتذة الجامعات المغرمين بتضخيم ما يكتشفونه من حقائق صغيرة.. ولا أدل على هذا الاتجاه من ذلك

البرنامج التلفزيوني الشهير الذي أذيع في نوفمبر ١٩٩٤ بعنوان «الجهاد في أمريكا» عن نشاط الإرهابيين المسلمين، سواء من المقيمين في أمريكا أو الزائرين لها، ممن يجمعون التبرعات من مسلمي الولايات المتحدة لتمويل جماعة حماس أو حزب الله، والذي أورد فيه معد البرنامج (ديفيد إمرسون) اسم الشيخ يوسف القرضاوي من بين أخطر الزعامات الإسلامية الداعية إلى الإرهاب، وطفق يترجم حرفياً جملاً وردت في الخطب التي ألقيت في بعض تجمعات المسلمين هنا للتدليل على نواياهم الخبيثة الشيطانية، وخططهم لتدمير أو زلزلة أسس «الحضارة الأمريكية»، غير مدرك (أم لعل مدرك؟) لحقيقة أن اللغة العربية بطبيعتها لغة خطابية، كثيراً ما يجدر بالباحث المنصف أن يغربلها من ثلاثة أرباع عباراتها حتى يصل إلى الغرض الحقيقي لصاحبها!..

المستقبل الذى ينتظرنا

ما دام ثمة توازن فى القوى بين شعبيين أو حضارتين يدفع كلا من الطرفين إلى الاعتراف بقوة الآخر وإلى أخذه بعين الاعتبار والاهتمام، فإن «الكليشيهات» إن نشأت هنا هى فى العادة كليشيهات تنم عن الاحترام والتقدير، حتى مع الاعتراف باختلاف الطرف الآخر، سواء فى القيم أو الدين أو أسلوب العيش. فهنا نجد الإقرار بالجوانب الإيجابية، ومزايا أساليب الحياة لدى الآخرين، ونواحي القوة فى معتقداتهم وقيمهم.. ومن أمثلة ذلك ما نجده فى كتب الأوروبيين فى العصر الوسيط من إشادة بحضارة مسلمى الأندلس، ومن مديح لصلاح الدين الأيوبي أو الظاهر بيبرس، وفى كتب المؤرخين المسلمين فى نفس العصر من إعجاب بشخصية فردريك الثانى إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة، أو ببلاطه فى صقلية.

غير أن كل هذا يتغير متى ما اختل هذا التوازن فى القوى، وأصبح ثمة طرف أقوى بكثير من الطرف الآخر، سواء من الناحية العسكرية أو الحضارية أو الاقتصادية.. فهنا يصبح الطرف الثانى موضع احتقار الأول، وتضحى نظرة الأول إليه ليس فقط باعتباره «مختلفاً»، ولكن أيضاً باعتباره ضعيفاً و«متخلفاً»، ولا مستقبل أمامه إلا إن هو تعلم من الأول، وتبنى مفاهيمه وأسلوب عيشه ومظاهر حضارته. وهنا تنشأ لدى الطرف القوى حاجة إلى الحفاظ على ذلك الوضع من اختلال التوازن، لا بالوسائل العسكرية فحسب (فهى وسائل مكلفة سواء بشرياً أو مادياً)، وإنما أيضاً عن طريق النشر المتعمد لمجموعة من الأفكار والكليشيهات الخاصة بأوجه الاختلاف بين الطرفين، وتصويرها على أنها ثابتة

لا تتغير، وذلك من أجل إثبات حقّه في استمرار هيمنته، وغرس الشك لدى الآخر في ذاته وفي قدرته على التصدّي بنجاح لمقاومة الطرف الأول الذى ينتمى إلى جنس «أرقى»، وحضارة «أعلى».

حينئذ يهّم الطرف الأقوى أن يشيع لدى الجميع، هنا وهناك، فكرة أنه الطرف المتحضّر، وأن عليه عبء نشر الحضارة فى الأقطار الهمجية المتأخرة، ومسئولية إلحاق هذه الأقطار بركب الحضارة والمدنية، ولو فى ذيل ذلك الركب.. وفى اعتقاده أنه ربما كان من الأهداف الرئيسية لإنتاج مسلسلات تليفزيونية مثل «دالاس» وغيره، وعرضها فى دول العالم الثالث، إطلاع شعوب العالم الثالث على ما تتمتع به الشعوب المتحضرة من رخاء وثراء ونعيم عيش، وهو ما لن يحققه العالم الثالث ولو بعد ألف عام، «ما لم تبدأ شعوبه من الآن بإبداء الرغبة والاستعداد لاقتناء أثرنا نحن، وإطاعتنا طاعة كاملة، والامتثال لأوامرنا، ببيئتها مثلاً ما فى أراضيها من النفط لنا نحن، وهو النفط الذى وجدناه نحن فى صحاريها التى تتبعها اسمياً».. فعن طريق الأفلام والمسلسلات التليفزيونية وما شابهها إذن يمكن تبليغ هذه الرسالة بصورة غير مباشرة، ولكنها أكثر فعالية وأبلغ تأثيراً، بالنظر إلى أنها تتسلّل إلى العقل الباطن دون أن تلقى مقاومة أو اعتراضاً، فيصعب التصدّي لها أو تحدّيها.

ولا يكتفى الغرب بإبراز الجوانب «الإيجابية» من حضارته هو، وإنما يُعنى أيضاً بإبراز الجوانب «السلبية» فى المجتمعات التى يهيمن عليها، وذلك من أجل استئصال أى إحساس بالذنب أو تانيب الضمير قد يشعر به المهيمون من جرّاء استغلالهم أو استعمارهم لأقطار أخرى (لاحظ مثلاً صورة الأفارقة فى أفلام طرزان). فهو يصوّر شعوب تلك الأقطار على

أنها فى حاجة دائمة إلى مساعدة الغرب وتوجيهاته بالنظر إلى عجزها عن مساعدة نفسها، ويحاول أن يخلق لدى تلك الشعوب استعداداً لقبول كل ما يقرّر الغرب أنه مفيد لها وله.. وعلى سبيل المثال: صحيح أنه لا يزال فى العالم العربى حمير وجمال ونخيل ورمال وخيام وبدو، غير أن هناك اليوم أشياء أخرى كثيرة غير هذا.. ولذا فإن الشركات السينمائية تُكثر من إنتاج الأفلام التاريخية أو المستقاة من قصص الكتاب المقدس، حتى ترسخ فى أذهان المشاهدين من الأوروبيين والأمريكيين هذه الصورة القديمة عن الشرق الأوسط.. فإن تناولت الأفلام موضوعات حديثة، فهى عادة أفلام بوليسية أو أفلام مغامرات تُظهر أهل المنطقة بنفس الصورة البدائية تقريباً.. ولا يلاحظ المتفرجون إلا نادراً أن هذه الأفلام تقدّم عامدة خدمة كبيرة لمصالح ذوى النفوذ فى الغرب، بخلقها مفاهيم وكليشيهات عن مدى تخلف أهالى الأقطار الأخرى، كما تقدم خدمة عظيمة لإسرائيل والصهيونية المهيمنة على وسائل الإعلام والصناعة السينمائية فى الولايات المتحدة على الأقل، بإثارتها مشاعر النفور والاحتقار للعرب.



غير أنه لابد من أن نضيف هنا أنه قد حدث خلال نصف القرن الأخير تغير جذرى ملحوظ فى طبيعة مصالح الغرب فى مستعمراته السابقة، وبالتالي فى سبل تحقيق أهدافه فيها.. فقد وضح فى بعض الدول - كبريطانيا وفرنسا مثلاً - أن المستفيد من المستعمرات ليس هو الشعب البريطانى أو الفرنسى، وإنما هى جماعات معينة من الطبقات العليا فى الدولتين. هذه الجماعات أضحت بمقدورها اليوم تكوين الثروات بطرق أخرى غير الاستعمار، كما أنها اكتشفت فجأة أن الإبقاء على

المستعمرات يكلف المستعمرين أكثر مما تدرّه هذه المستعمرات من دخل، بالنظر إلى اضطراب المستعمرين إلى الإنفاق على جيوشهم فيها، بل وفي بعض الأحيان إلى إنفاق بعض الأموال من أجل تخفيف أعباء الفقر المدقع الذي يعيش فيه أهالي مستعمراتهم، وهى أموال رأى المستعمرون من الأجدى إنفاقها على الطبقة العاملة فى بلادهم هم.. ويتغيّر طبيعة المصالح، قررت الدول الاستعمارية فجأة منح المستعمرات استقلالها الذى جاهدت من أجله لسنوات طويلة فى الماضى..

وفى السنوات التالية للحرب العالمية الثانية، نشأت نظرة أمريكية متفائلة، مؤدّاه أن كل الدول المتخلّفة (أو النامية كما سميت فيما بعد) يمكنها أن تلعب دوراً مرغوباً فيه، هو دور الشريك فى التجارة والصناعة الدوليتين، شأنها فى ذلك شأن ألمانيا الغربية التى ساعدها مشروع مارشال على الوقوف على قدميها.. وقد خُيل للأمريكيين أن النهضة الاقتصادية للدول النامية يمكن أن تتحقق وأن تؤتى ثمارها فى زمن قصير جداً.. وبوسعنا أن نسمى تلك الفترة بفترة «أساطير التنمية»، وكان أساسها الفكرة التالية: «نحن نساعدكم الآن حتى تصبحوا قريباً شركاء فى عالم الغد الزاهر الذى سنعيش فيه جميعاً فى رخاء عميم».. وقد كان الجميع مخلصين فى قبولهم لهذا الزعم وتصديقه. غير أن الذى حدث هو أن الفكرة لم تتمخّض إلا عن تصدير واسع النطاق لرؤوس الأموال إلى الدول المتخلّفة، وتصدير أوسع نطاقاً للسلع الاستهلاكية، تدفع تلك الدول ثمنها مما لديها من مواد خام، ومما حصلت عليه من قروض وائتمانات، حتى وجدت نفسها دون أن تدرى مكبّلة الأيدي والأقدام، وقد زاد اعتمادها سنة بعد أخرى على الدول الصناعية فى حصولها على

السلع والمواد الغذائية والخبرات، ثم أفاقنت لتدرك أنها باتت غارقة فى ديون لا هى قادرة على تسديدها، ولا حتى تسديد قيمة فوائدها.

أما عن أفراد الطبقة الحاكمة المتفرنجة فى تلك الدول فقد كانوا دائماً من الأنانية والفساد، وضيق النظرة والتعلق بمصالحهم الخاصة، بحيث قدّروا أن أهم احتياجات بلادهم تتمثل فى السلع الاستهلاكية ومستلزمات الترف التى شاهدوها فى الأفلام المصدّرة إليهم. وإذ انصبّ جلّ اهتمامهم على الإنفاق فى بذخ على بناء القصور فى قرى الاصطياف وغيرها لأنفسهم وللأثرياء من أعوانهم، وإقامة الكبارى العلوية ورصف الطرق السريعة لسياراتهم، أصبحوا وقد انطبقت عليهم بحذافيرها قولة كسرى أنو شروان الشهيرة: «إن الملوك إذا دبّروا مُلكهم بما يأخذونه ظلماً من مال رعيتهم، كانوا كمن يعمر سطح بيته بما يهدمه من أساسه».

وأمر مؤلم آخر، هو أن هذا النمط المتبنى من التنمية لم تصحبه تسوية للنزاعات والصراعات بين الأقطار المتجاورة فى العالم الثالث. وقد استغلّت الدول الصناعية الكبرى هذه النزاعات لصالحها بتزويد الأطراف المتصارعة بالأسلحة مقابل ما لديها من ثروات نفطية أو زراعية، وأنشغلت الأقطار المتخلفة باستخدام هذه الأسلحة فى تدمير بعضها البعض.. كذلك فإن تطبيق سبل العناية الصحية والأساليب الحديثة، نتج عنه زيادة رهيبة فى تعداد سكان دول العالم الثالث، مما كان يبتلع أولاً بأول ثمار أى تقدّم تحقّقه مشروعات التنمية.



على ضوء هذه النكسات وغيرها تغيّرت مرة أخرى نظرة الدول الصناعية المتقدمة إلى طبيعة مصالحها، فظهرت فيها نظرية جديدة

مؤداها: «أن الآخرين مختلفون عنا، والأجدى أن نتركهم وحدهم، وأن نركّز اهتمامنا على المناطق القليلة ذات الثروات التي لا غنى عنها لنا ولصناعاتنا ومجتمعنا.. وأهم هذه الثروات هو النفط. فعلى أن نضمن ما يسمى بالاستقرار فى تلك المناطق أو الدول الهامة.. ومن حسن الحظ فإن تعداد السكان فيها هو عادة قليل. فلنجعل منها الشركاء الجدد للعالم الصناعى. وكلما زاد اعتماد مواطنيها على حمايتنا العسكرية لهم، زاد حقد جيرانهم الفقراء عليهم. غير أن هذا لن يضر العالم الصناعى فى شىء». فالحقد لابد أن يستثير المخاوف. وستضطرب المخاوف شركاءنا الأغنياء، فى الأقطار المنتجة للنفط إلى الاعتماد أكثر فأكثر على حماية الدول الصناعية القوية.. وسنكون عندئذ كالبيرتغاليين الذين أدركوا فى مرحلة معينة من تاريخهم أنه لم يعد بمقدورهم الاستمرار فى استعمار وحكم بقاع شاسعة من بقاع الأرض، فاختاروا الاحتفاظ بعدد منقلى من الموانئ تظل تحت هيمنتهم، وتضمن تدفق الثروات الناجمة عن التبادل التجارى على البرتغال».

الخطر الوحيد الذى قد يتمخض عن مثل هذا الوضع الجديد على مصالح الدول الغربية، هو أن تتجه الملايين المتكاثرة من الشعوب التى لم تخترها شركاء لها والتى تركتها وشأنها، إلى التضامن والتضافر ضدها. ولكى تحول الدول الغربية دون تحقيق هذا التضامن، التزمت بسياسة «فرق تسد»، وشرعت تخلق الأسباب والدواعى التى تدفع تلك الملايين إلى التحارب فيما بينها، فى الوقت الذى تنشغل الدول الغربية فيه بتنسيق مصالحها وسياساتها الصناعية والتجارية. وسيكون بمقدور تلك الدول دائماً أن تبعث بقوات دولية إلى تلك المناطق بدعوى الحفاظ على

السلام والاستقرار، ثم تبقيها هناك إلى أبد الأبد.. ففى بعض تلك المناطق، مثل كشمير، ظلت القوات الدولية باقية لما يقرب من نصف قرن أفلحت خلالها - لا فى حلّ النزاع - وإنما فى تطويقه.. وها هى قبرص وقد أضحت مثلاً آخر.. وسيكون بوسع الدول الغربية دائماً أن تقنع الكافة بسهولة بأن الذنب ليس ذنبها، وإنما هو ذنب تلك الشعوب المتخلفة التى تتحكم العواطف فيها لا العقل، والتى ستبقى إلى الأبد (على حدّ تعبير أحد الجنرالات الإسرائيليين الذى ربما كان فى تعبيره أصح مما ينبغى) كالصراصر السكارى داخل زجاجة مغلقة! وسيعمل الغرب على نشر هذه الفكرة من خلال الأفلام المصوّرة لهذه الصراعات والاشتباكات (مما تذيعه شبكة السى. إن. إن وغيرها) حتى يراها الكافة ويصدّق الجميع الزعم بأن الشعوب المتخلفة هى وحدها المسؤولة عن وضعها البائس. (أفغانستان مثلاً).

لقد نجحت نظم الدول الصناعية فى تكييف مشاعر وآراء الشعوب المتخلفة والمتقدمة على السواء. فقد بات لدى الشعوب الغنية إحساس راسخ بتفوّقها وحقها فى الهيمنة على مقدّرات العالم، وأضحى لدى الشعوب الفقيرة إيمان بتخلّفها وبمشروعية وضعها الذليل فى عالم اليوم. أما الدول المتخلفة الغنية كدول الخليج المتّجة لتفط تبينه للدول الصناعية، فلا حاجة بها إلى الإحساس بالنقص، حيث أنها باتت دول صديقة للعالم الأول وتحت حمايته.. فإن حدث ما لا مفرّ من حدوثه فى بعض الأحيان وثارت الدول الفقيرة على وضعها، أو تمرّدت شعوبها على انصياع حكوماتها لشروط صندوق النقد الدولى بمضاعفة أسعار الخبز والمواد الغذائية مثلاً، فستنشأ الحاجة من حين إلى آخر إلى استخدام الدول

الكبرى للقوة فى قمع تمردها، ما لم تكن فيها حكومات قوية يمكنها الاعتماد عليها فى استخدام الشرطة والجيش من أجل القضاء على القلاقل. وستعمل الصورة التى غرستها الدول الغنية عن حكمتها وشعورها بالمسئولية، وعن نزق «الآخرين» وافتقارهم إلى الشعور بالمسئولية، على تبرير هذه الإجراءات وهذا التدخل، حتى لو تصادف أن لاحظ البعض كيف أن هذه الإجراءات تتفق اتفاقاً تاماً مع المصالح الخاصة للدول الغنية!

أما حكومات الدول المتخلفة فلها بالتأكيد دورها فى ظل هذا الوضع، وفى مثل هذه اللعبة. فكلما زادت خدماتها للدول الكبرى سيزيد استعداد الدول الكبرى للتفاسى عن حكمها الاستبدادى فى بلادها. ذلك أن استخدام الحكام المستبدين بالسلطة كأدوات لتنفيذ مصالح الدول الكبرى هو أسهل على تلك الدول الأخيرة من استخدام الأنظمة الديمقراطية، وذلك بالنظر إلى شدة خوف المستبدين على حياتهم، وشدة تعلقهم بمناصبهم، مما يضطرهم اضطراراً إلى طلب حماية الدول الغنية. ومع ذلك، فستظل الدول الكبرى - كالولايات المتحدة - على تفضيلها للدول ذات التعداد الصغير من السكان، لأن إدارتها أسهل من إدارة الدول الكثيرة السكان مثل إيران والعراق والجزائر ومصر.



وفى اعتقادنا أن مثل هذه النظرة لدى الدول الصناعية نظرة ضيقة وخطرة عليها فى المدى البعيد، وشبيهة بقولة لويى الخامس عشر «بعدى الطوفان».

فثمة خطر من أن تضحي الدول الصناعية نفسها حبيسةً فضحيةً لمفهومها عن مصالحها وكليشيتها عن العالم الثالث وعن نفسها، وهي الكليشيات التي تخلقها أجهزة الإعلام فيها.. ذلك أن كل ما يشغل بالها حالياً هو كيفية الاستفادة المادية في الوقت الراهن وفي المستقبل القريب، ثم «بعدي الطوفان».. انظر إلى مبيعاتها من السلاح مثلاً إلى الدول النامية. أو انظر إلى أفلامها وبرامجها التليفزيونية التي تخلق الرغبات والتطلعات لدى شعوب فقيرة لن يمكنها أبداً إشباعها أو تحقيقها، اللهم إلا حكامها وطبقة جدد محدودة من الأثرياء فيها.. فالدول المتقدمة تسعى إلى أن تقلدها تلك الشعوب لأنها - أي الأولى - تعرف أن التقليد بطبيعته يرسخ الإحساس بالنقص والشعور بعدم المساواة.. غير أن إعلام الدول المتقدمة وأفلامها تقول للمتخلفين: «عليكم بالعمل على اقتناء ما لدينا مهما كانت كلفة ذلك عليكم وعلى مجتمعاتكم وإلا بقيتم على تخلفكم». ولاشك أن هذه الرسالة رسالة خطيرة. فتزايد رغباتهم وتنامي تطلعاتهم - دون القدرة على إشباعها - سيهددان أمن الدول الغنية. وإدراك الدول الغنية لهذا الخطر سيدفعها إلى أن تحرص - بل وقد بدأت تحرص من الآن - على بناء أسوار عالية حول مجتمعاتها الصناعية المتقدم حتى لا يتسلل إليه الفقراء والإرهابيون وسائر الخطرين على الأمن من العالم الثالث.. بدأت تضع العقوبات في سبيل حصول أبناء العالم الثالث على تأشيرات دخول إلى أراضيها، أو على تصاريح بالإقامة أو العمل فيها، ورفعت أسعار تذاكر السفر إلى أقطارها. وسيأتي الوقت الذي لن تسمح فيه بالدخول إليها إلا لعدد محدود جداً منهم، وذلك في أوقات الرخاء حين تكون في حاجة إلى أيد عاملة رخيصة تقوم بالأعمال

الوضعية التي يابى مواطنوها أدائها، أو إلى أطفال يتبنأهم بعض مواطنيهم حين يقل عدد السكان في هذا البلد أو ذاك.

غير أن هذه الأسوار لا شك في أنها ستُخترق في يوم ما.. ستُخترق متى عظم الضغط عليها من الخارج.. و سيزداد الضغط عليها كلما ازدادت الشعوب الفقيرة المتخلفة فقراً وتخلفاً.

وهنا يكمن الخطر على شعوب الدول المتقدمة الغنية.

ولن يتحقق تصحيح الوضع إلا إذا تغيرت طبيعة نظرتها الراهنة إلى علاقاتها بالعالم الثالث تغييراً جذرياً.

مفهوم العشق عند الغزالي وشوبنهاور

(وما العشقُ إلَّا غَرَّةٌ وطَمَاعَةٌ

يَمَرُّضُ قَلْبُ نَفْسَهُ فَيُصَابُ)

– المتنبي

نشأتُ على الإيمان المطلق بتفسير شوبنهاور للعشق كما أورده في الفصل الخاص بميتافيزيقا الحب الجنسي من كتابه «العالم إرادة وفكرة». فلما أقبلتُ في سنى النضج على قراءة الغزالي، صدمنى أن أقرأ في «إحياء علوم الدين» نظرية له فى العشق هى النقيض التام لرأى الفيلسوف الألمانى. وكانت الصدمة من القوة، والنظرية من الغرابة، بحيث كاد أن يخيّل إلى أن الغزالي إنما ساقها على سبيل الهزل. غير أنى وقد مضيتُ أَلْقَبُ النظر فى الفكرة فى هدوء، إذا بالصدمة وقد تحوّلت إلى دهشة، والدهشة إلى فهم لما يعنى، واعترافى للرأى بقسط من الصواب، ثم إذا بى فى النهاية أحوّل إيمانى المطلق عن تفسير الألمانى إلى تفسير حجة الإسلام، وأتحمّس لرأى الثانى الحماس كله. وهما إيمان وتحمّس قائمان إلى يومى هذا.

خلاصة الراييين

ملخص رأى شوبنهاور فى العشق هو أنه – عكس الغريزة الجنسية – إنما يخدم الكيف لا الكم، ويهدف فى حقيقته إلى الارتقاء بنوعية الجيل التالى وسعته الخلّقية والخلّقية، حتى وإن هيئ للعاشق أنه لا يخدم غير

ذاته ومأربه. فهو إذن تطوير للغريزة البهيمية، وضرب من ضروب التسامى، وإن كان الجماع هو دوماً غايته. وإذا كان هواناً لا ينصرف إلا إلى مَنْ ندرك لا شعورياً أن الطفل الذى سينجم عن العلاقة الجنسية به سيكون قوياً صحيح البدن والعقل، يجمع بين أوجه قوة الطرفين، ويحقق فى شخصه تكاملاً وانسجاماً يفتقر الأبوان إليهما، فالمعشوق إذن خيرٌ على البشرية فى إطار عام من الشر. أما الغريزة الجنسية التى هى أداة إرادة العالم (ويراها شوبنهاور شراً فى جوهرها)، ووسيلتها إلى الحفاظ على النوع، فهى شرٌ بالضرورة، لأنها أداة الشر لتحقيق استمرار الشر.

أما الغزالى، فهو مع إقراره بأن القصد من الغريزة الجنسية (ويسميها الشهوة) هو الإبقاء على النوع، وبأن المعشوق الذى هو تعلقٌ بواحد من الجنس الآخر نابع عن الغريزة التى تتجه إلى الجنس الآخر بوجه عام، يرى المعشوق ممسكاً للغريزة، «وغاية الجهل بما وُضِعَ له الوقاع، ومجاوزة فى البهيمية لحدِّ البهائم»! وبالرغم من أن الغريزة الجنسية خيرٌ إذ أودعها الله بحكمته الكائنات من أجل استمرار الأنواع فيحقق بذلك غايته التى لا يمكن إلا أن تكون جليلة خيرة، فهى - بمعنى معين - ضربٌ من الذلِّ لا مفرٍّ منه، شبيه بذلِّ الجوع والعطش.. أما المعشوق، فيزيد صاحبه ذللاً إلى ذلٍّ، وعبودية إلى عبودية، «لأنَّ المتعشِّق ليس يقنع بإراقة الوقاع، حتى اعتقد أن الشهوة لا تنقضى إلا من محل واحد. والبهيمة تنقضى الشهوة أين اتفق، وهذا لا يكتفى إلا بشخص واحد معين حتى يستسخر العقل لخدمة الشهوة».

والعشق عند الغزالى أبعد ما يكون عن ضروب التسامى بالغريزة، بالعكس، «ما العشق إلا سعة إفراط الشهوة، وهو مرض قلب فارغ لا هم

له» (يعرض قلبه نفسه فيصاب). فهو إذن شرٌّ بالضرورة، «ويجب الاحتراز من أوائله بترك معاودة النظر والفكر، وإلا فإذا استحكم عسر دَفْعُهُ.. ومثال من يكسر سَوْرَةَ العشق في أوّل انبعاثه مثال من يصرف عنان الدابة عند توجيهها إلى باب لتدخله. وما أهون منعها بصرف عنانها. ومثال من يعالجها بعد استحكامها مثال من يترك الدابة حتى تدخل وتجاوز الباب، ثم يأخذ بذنْبِها، ويجرّها إلى ورائها. وما أعظم التفاوت بين الأمرين في اليسر والعسرا».

المفهوم العربى والإسلامى للعشق وبواعثه

وفى اعتقادى أن هذا الرأى فى العشق - رغم أنه لفيلسوف غير عربى - يعكس على نحو دقيق المفهوم العربى الخالص له بوجه عام، وأن الدين الإسلامى الذى يبيّن الغزالى مفاهيمه، إنما جاء مؤكداً ومُقرّاً للمفهوم العربى فى هذا الصدد لا لمفهوم آخر. وقد لخص المتنبى هذا المفهوم العربى فى بيت واحد، هو ذاك الذى صدرنا به هذا الفصل.

ولا يعنى هذا بطبيعة الحال أن العرب لا تعرف العشق، أو أنها كانت دائماً تستنكره. وإنما هو يعنى أن للعرب فى مجموعهم موقفاً عقلياً ونفسياً من قضيته. فالعشق عاطفة قائمة وستظل قائمة عند العرب كما عند غيرهم. وما هى كتب الأدب بين أيدينا، ككتاب الأغانى وغيره، تنصّ بأخبار العشاق وأشعارهم.. غير أنى أميل فى هذا الصدد إلى رأى طه حسين فى أن إقبال الناس فى فجر الإسلام وضحاها إقبالاً عظيماً على سماع الغناء، دفع المتغنين إلى اصطناع ضروب من الشعر العذرى والإباحى يغنون فيها، وكان ثمة شعراء ينظمون لهم مثل هذا الشعر فى الغزل، ثم

ينسبونهم إلى أهل البادية حينئذ، وإلى أهل الحاضرة حينئذ آخر.. ثم كان أن نشأ القصص الغرامية كأثر من آثار هذا الغزل، إذ احتاج الناس إلى تفسير القصائد، وإلى وصل بعضها ببعض، فاختترعت الأقاصيص الغرامية من أجل إرضاء هذه الحاجة. وهو عكس ما يعتقد البعض من أن هذه القصص أنشئت بادئ بدء لتسلية الناس، ثم تحل القصص الشعر الغرامي على اختلاف ألوانه تحليةً لقصصهم.. يقول طه حسين في «حديث الأربعاء»:

«لسنا ننكر وجود جميل (بن معمر)، بل ولسنا ننكر أنه أحبّ بثينة. ولسنا ننكر وجود قيس بن ذريح، بل ولسنا ننكر أنه تغزل في لبني. ولكننا نزع أن هذه الأخبار التي تُروى عن حب جميل وقيس لبثينة ولبني مصنوعة متكلفة في أكثر الأحيان، وأن تكلفتها أحدث إلى جانب هذين الفئتين الشعريين اللذين ذكرناهما فثأً ثراً جديداً، هو فن القصص الغرامية».



فإن نحن عدنا إلى مفهوم العشق عند الغزالي وجدناه يتضمن عدداً من العناصر:

أولها: أن العشق هو نتيجة إما لآفة في العقل (كما عند قيس بن الملوّح المعروف بمجنون بني عامر)، أو فراغ صاحبه وتبطله وافتقاره إلى قضية تشغله (كما عند عمر بن أبي ربيعة أو الشعراء المذريين كجميل بن معمر)، أو وهم خاطي بأن فرداً معيناً فحسب، من بين جميع أفراد الجنس الآخر، هو الكفيل بإشباع حاجة العاشق. وهو وهم يشترك فيه كافة العشاق.

١ - آفة في العقل: ففي كتاب الأغاني: «حدّث عيسى بن ذأب قال: قلت لرجل من بنى عامر: أتعرف المجنون وتروى من شعره شيئاً؟ قال: أو قد فرغنا من شعر العقلاء حتى تروى أشعار المجانين! إنهم لكثير! فقلت: ليس هؤلاء أعنى، إنما أعنى مجنون بنى عامر الشاعر الذى قتله العشق. فقال: هيهات! بنو عامر أغلظ أكباداً من ذلك. إنما يكون هذا فى هذه اليمانيّة الضعاف قلوبها، السخيفة عقولها، الصغيرة رؤوسها - فأما نحن فلا».

٢ - فراغ وتبطل: فمن أمثلة ذلك ما نعلمه من أن أهل الجزيرة العربية، بعد أن انتقل السلطان السياسى منها إلى الشام وقت الأمويين، وانتقال مركز المعارضة منها إلى العراق، انصرفوا أو كادوا ينصرفون عن الاشتراك فى الحياة العامة، وفرغوا للحياة الخاصة، لا سيّما أن الخلفاء دأبوا على إغداق الأموال الوفيرة على أبناء المهاجرين والأنصار فى مكة والمدينة، اصطفاً لهم، وضماً لإمساكهم بمعزل عن الحياة العملية السياسية العملية. وإذا اجتمعت البطالة واليأس من الحياة العملية إلى الثروة والغنى، لم يكن مستغرباً أن يسرف الشبان الأشراف الأغنياء فى مكة والمدينة فى اللهو، وأن يظهر بينهم أمثال عمر بن أبى ربيعة والأحوص من شعراء الغزل الإباحى. أما أهل البادية فى الحجاز ممن لم يكن الخلفاء فى دمشق يخشون شرهم، ولا كانوا فى حاجة إلى استرضائهم، فقد غلب عليهم اليأس، ولم يُنَجِّ لهم اللهو، فانصرف شبابهم المتبطلون إلى الغزل العفيف الذى يمثّل طموح البادية إلى المثل الأعلى فى الحب من جهة، وتعفّفها عن ألوان الفساد التى كانت تغمر أهل مكة والمدينة من جهة أخرى.

٣ - وهم خاطئ، يُعْمَى ويصمّ، فيحسب صاحبه أن الشهوة لا تنقضى إلا من محل واحد.. قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إذا رأى أحدكم امرأة فاعجبته، فليأت أهله، فإن معها مثل الذي معها».. ويصف ابن المقفع العشق بأنه من أوقع الأمور في الدين، وأنهكها للجسد، وأتلفها للمال، وأضرها بالعقل، وأسرعها في ذهاب الجلالة والوقار. «ومن البلاء على المغرم بالنساء أنه لا ينفك يمل ما عنده، وتطمح عيناه إلى ما ليس عنده منهن. وإنما النساء أشباه، وما يرى في العيون والقلوب من فضل مجهولاتهن على معروفاتهن باطلٌ وخُدعة، بل ما يرغب عنه الراغب مما عنده، أفضل مما تتوق إليه نفسه. وإنما المترغّب عما في رَحْله منهن إلى ما في زحال الناس، كالمترغّب عن طعام بيته إلى ما في بيوت الناس. بل النساء بالنساء أشبه من الطعام بالطعام، وما في زحال الناس من الأطعمة أشدّ تفاضلاً وتفاوتاً مما في زحالهم من النساء.. ومن العجب أن الرجل الذي لا يأس في لُبه، يرى المرأة من بعيد متلففة في ثيابها، فيصوّر لها في قلبه الحسن والجمال، حتى تعلق بها نفسه من غير رؤية ولا خبر مُخبر، ثم لعلّه يهجم منها على أقبح القبح وأدمّ الدمامة، فلا يعظه ذلك عن أمثالها، ولا يزال مشغوفاً بما لم يذق، حتى لو لم يبق في الأرض غير امرأة واحدة لظن أن لها شيئاً غير شأن ما ذاق».

وثانيهما: أن العشق مذلةٌ وعبودية، كما أنه كفيل بأن يصرف صاحبه عن جلائل الأمور، ونبيل الأغراض والاهتمامات. فإن كان احتدام الغريزة الجنسية (أو الشهوة كما يسميها الغزالي). «ضَرَبَ من الذلّ شبيهه بذلّ الجوع والعطش»، يذهب معه ثلثا العقل، فإن عَشِقَ إنسان بعينه يزيد المرء عبودية إلى عبودية، ويضيع معه العقل كله.. يقول ابن حزم في «طوق الحمامة»:

«لقد وطئتُ بساط الخلفاء، وشاهدتُ محاضر الملوك، فما رأيتُ هيبةً تعِدُ هيبة محبٍّ لمحبوبه. ورأيتُ تمكّن المتغلبين على الرؤساء، وتحكّم الوزراء، وانبساط مدبّرى الدول، فما رأيتُ أشدَّ تبجحاً ولا أعظم سروراً بما هو فيه من محبٍّ أيقن أن قلب محبوبه عنده، ووثق بميله إليه، وصحة مودّته له. وحضرتُ مقام المعتذرين بين أيدي السلاطين، ومواقف المتهمّين بعظيم الذنوب، فما رأيتُ أذلّ من موقف محبٍّ هيمان بين يدي محبوب غضبان».

هذا الذلّ تجاه المحبوب، وهذا الاستغراق في عشق فرد معين، رأهما المسلمون (والعرب) كفيّلين بصرف الاهتمام عن أمور أجلّ، وعن الغرض الذى خلّق الإنسان من أجله، إلى غرض عارض زائل. «قيل للمجنون: أىّ شىء رأيتَ أحبّ إليك؟ قال: ليلى. قيل: دُع ليلى فقد عرفنا مالها عندك، ولكن سواها. قال: واللّه ما أعجبنى شىء قط ثم ذُكرتْ ليلى إلا سقط من عيني وأذهب ذكرها بشاشتته عندي».

دفاع عن الشهوة

قد تنطوى الشهوة عند الغزالي على قدر من الذلّ، غير أن الذلّ فيها لا يقارن بذلّ العشق. فهنا تُقبَل صريحُ للغريزة الجنسية، واعتقاد بأن النشاط الجنسى جانب عادى بل ومحمود من حياة كل كائن. فإن كانت المسيحية، وشوبنهاور، قد اعتبرا حياة المزوجة مثلاً أعلى، وقامت فلسفتهما على اختصار الجسد، فإن الإسلام، وحجة الإسلام، يريان أنه حتى فى الجنة والنعيم الأبدى سيكون ثمة شكل من أشكال النشاط الجنسى (حتى إن لم يعد الإنجاب واستمرار النوع مطلوبين)، ولن تكون بالجنة التى يتخلّص الإنسان فيها من جسده الذى يرسف فى أغلاله:

وقد كان من النتائج المثيرة لهذه النظرة إلى الشهوة فى الإسلام، (ومما يثير استغراباً شديداً لدى غير المسلمين)، أن المسلمين فى مجموعهم لا يرون أى تعارض بين التقوى الشديدة (أو حتى الزهد) وبين الإقبال على النشاط الجنسي: كان على بن أبى طالب وابنه الحسن شديداً ألهم إلى النساء، وزواجين مطلقين، عكس معاوية بن أبى سفيان الذى لم يكن يؤلى إشباع الشهوة قدراً كبيراً من اهتمامه. ومع ذلك فما من أحد بوسعهم أن يدعى أن معاوية كان أعظم تقوى من النبى أو من عمر وعلى والحسن ابن على. كذلك فإننا لا نلمس أية مشكلة تثيرها حدة الرغبة الجنسية عند أعلام الصوفية (وغير أعلامها) عكس الحال مع متصوفة المسيحية كالقديسة تيريزا، أو مع رهبانها ونسائها ورجال الدين الكاثوليك. فالغالبية العظمى ممن نعرفهم من أعلام التصوف كانوا يتزوجون ويتسرون وينجبون، ولو كانوا قد وجدوا تناقضاً بين النشاط الجنسي وبين السعى وراء الانغماس فى الذات الإلهية، لتحذثوا عنه، ولوصلتنا بعض أقوالهم فى هذا الصدد، كتلك التى وصلتنا عن استنكارهم للنهم إلى الطعام، أو الانشغال بالملبس. أما القليلون القليلون الذين تركوا عمداً خلات النساء، أو ظنوا أن النشاط الجنسي يشغلهم عن مقتضيات العبادة، فالأرجح فى ظننا أن موقفهم هذا جاء متأثراً بديانات الهند، أو بممارسات رهبان ونسك المسيحية. وقديما قال النبى عليه الصلاة والسلام: «إن كنت من رهبان النصارى فالحق بهم، وإن كنت منا فمن سُنَّتِنا النكاح». كما حكى عن أحد الصالحين الكثيرين للنكاح أنه أجاب على استنكار متصوف لمسلكه: هل يحدث حين تجلس بين يدي الله تعالى جلسة أن يخطر على قلبك خاطر شهوة؟ قال: يصيبنى من ذلك

كثير. فقال: لو رضيتُ بمثل حالك لما تزوّجت، لكنى ما خطر على قلبى خاطر شهوة يشغلنى عن العبادة إلا قضيت شهوتى فاستريح وأرجع إلى شغلى!

قارن هذا الموقف بالنام الذى رأت فيه القديسة تيريزا وكان «ملاكاً بالغ الحُسن والجمال يطعن قلبى مرات عديدة بقضيب طويل من الذهب فى رأسه نار، حتى بلغ به صميم أحشائى.. وقد كان الألم حقيقياً لدرجة أنى اضطرتت إلى التآوّه بصوت مسموع. ومع ذلك فقد كانت اللذة عظيمة طغّت على ما كنت أشعر به من الألم. فما فى الحياة من ملذّة بوسعها أن تحقّق مثل هذا الرضا. وإذا استلّ الملكُ القضيبَ تركنى أتحرّق حبّاً فى الله».

وهو منام كان كفيلاً بأن يُثلج صدر فرويدا ومع ذلك فإن الكاثوليك الأسباب يحتفلون فى السابح والعشرين من أغسطس من كل عام بذكرى هذه الرؤيا للقديسة تيريزا. وهى رؤيا لا نحسب متصوّفاً مسلماً قد رأى مثلها.. كما لا نحسب متصوّفاً مسلماً واحداً يمكنه أن يقول مع الزاهد بطرس داميان: «بوسعى الآن وقد طعنت فى السن أن أنظر وأنا آمن إلى وجه امرأة عجوز شمطاء عمشاء العنين: أما من هنّ أجمل منها وجهها فإننى أغضّ الطرف عنهن، وأحذرهنّ كما يحذر الصبيان من النار. ويلاه أيها القلب المفجوع الذى لا يستطيع أن يحفظ آيات من الكتاب المقدس قرأتها مائة مرة، فى حين لا تنمحي منه صورة امرأة لم أرها غير مرة واحدة!».

كانت العفة تبدو لعظم الرهبان فى صورة صراع نفسى حادّ بين المرأة والمسيح، وكان تشهيرهم بالنساء واعتبارهن أداة للشيطان، من قبيل

محاولة إماتة شعورهم بمفاتيحهم. والتاريخ مع هذا ملئ بقتصص الرهبان الذين سمحوا لأنفسهم بالوقوع فى يرائن هذه المفاتن. كما أننا نجد فى التماثيل المقامة فى بعض الكنائس الكبرى، والنقوش المحفورة فى أثارها، بل الرسوم المصوّرة فى بعض الكتب المقدسة نفسها، ما يمثل عبث الرهبان والراهبات، وأتواب الدير يارزة فوق أعضاء التذكير المنتصبّة. وقد سمح رجال الكنيسة فى العصور الوسطى بهذه الرسوم والتماثيل. غير أن رجال الدين فى عصرنا هذا رأوا من الأفضل إزالة الكترة الغالبة منها.

كان الإسلام دائماً يرى فضل التأمل على العزب كفضل المجاهد على القاعد. وقد اعترف الجميع له، حتى من كانوا من أعدائه، أنه أوجد توازناً مرضياً بين الأخلاق والقرائن، وأنه بإقراره أن الإنسان بعيد عن الكمال، وبتقبله لأوجه ضعفه، قد أفلح فى استئصال الشعور بالذنب لدى المسلم. وهو إحساس مرضى كثيراً ما تسبب لدى أفراد الملل الأخرى فى اضطراب فكرى وسلوكى. وعلى ضوء هذا يمكن القول بأن الإسلام عَمَر قلوب أتباعه بثقة أساسية فى الحياة، وزوّدهم بنظرة إيجابية متفائلة إليها، وأنه لا يرى من بين خطايا البشر خطيئة لا تُغتفر غير خطيئة الشرك بالله.

شوبنهاور والإسلام

إزاء هذه النظرة المتفائلة إلى الحياة وإلى الشهوة، لم يكن من المستغرب أن يصفها شوبنهاور بالسطحية المفرطة. ومع ذلك فقد رأى الرجل فى الإسلام ونمط الحياة الإسلامية ما أقرّه وحمده. فهو الذى دعا الأوروبيين عقب الحروب النابوليونية التى حصدت أرواح الآلاف المؤلفة من الرجال،

وتركت نسبة الإناث أعلى بكثير من نسبة الذكور، إلى الأخذ بمبدأ تعدد الزوجات الكفيل بانتاذ ملايين النساء من شرور الدعارة. غير أن الأهم من ذلك أنه (مع اعترافه بأن ضعف النساء يستدعى معاملتها معاملة رقيقة خاصة)، كان يستشيط غضباً إزاء تسميتهن بالجنس اللطيف، وإزاء ما يراه في أوروبا من احترام الرجال وتوقيرهم للمرأة توقيراً يجاوز الحد، ويثير ضحك وسخرية المسلمين والشرقيين بوجه عام، ويذكرهم بتقديس البقر في الهند، والقرود في مدينة بينارس، كما أنه كان كفيلاً بأن يكون مثار الاستهزاء عند الإغريق والرومان.

فتسمية النساء بالجنس اللطيف لم تكن لتصدر - في رأى شوبنهاور - إلا من رجال غلبت الشهوة على عقولهم، وتأثروا بأفكار الحمقى من الفرنسيين عن اللّخوة وأخلاق الفروسية والشهامة، فإذا هم بتبجيلهم الزائد للمرأة، وإفساح مكان الصدارة لها، وتقديمها على الرجل، وتقبيلها يدها، إلى آخره، قد زادوها صلّفاً وغطوسة حتى هيئى إليها أن بوسعها الإقدام على فعل أى شيء، وأحلّوها مكانة زائفة ليست أهلاً لها، ولا هى بالتى تمتلك مقومات شغلها. أما المسلمون فقد كانوا دائماً يضعون نساءهم فى مكانهن الطبيعي، مما كانت له آثاره الحميدة فى حياتهم الاجتماعية وهو ما ينبئى للأوروبيين أن يسموا إلى التعلّم منه، والاقتداء به.

سماحة الإسلام

(١)

هل حدث وتأمل مسلمٌ فى حكمة اختتام الصلاة بالالتفات إلى الجالسين إلى يمينه قائلاً: «السلام عليكم ورحمة الله»، ثم الالتفات إلى الجالسين إلى يساره قائلاً: «السلام عليكم ورحمة الله»، ثم مصافحة جاريه إلى اليمين وإلى اليسار مع الدعاء للكافة بالاجتماع فى الحرم؟

هل حدث ورأى فى هذه الخاتمة للصلاة رمزاً لسماحة الإسلام، وتقبلاً من المسلم لمن هم فى رأى عن يمينه أو عن يساره، وتذكراً بأن الأمة مهما بلغ اختلاف الآراء بين أفرادها تجتمع فى الصلاة والصوم والحج وسائر العبادات، ودعاءً إلى الله أن يجنب هذه الأمة شرّ الفوضى، وأن يبقى اختلاف الرأى بين أبنائها رحمة، ما تمسكوا بالتسامح بينهم، وبحق صاحب الرأى المخالف لرأيهم فى المخالفة، وتأكيداً لحقيقة أنه ليس لمسلم أن يتكلم باسم الإسلام ظاناً أنه وحده - أو هو وجماعته وحدهما - من يفهم النص على حقيقته، وأن غيره هو حتماً على خطأ، فيقيم نفسه بهذا الادعاء مقام الله ويقع فى الشُّرك؟

(٢)

ثم هل حدث أن تأمل مسلمٌ وهو يتلو سورة النصر ﴿ إذا جاء نصرُ الله والفتح ﴾ ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا، فسبح بحمد ربك واستغفره، إنه كان تواباً، أو الآيات الثلاث الأولى من سورة الفتح ﴿إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً، ليغيرَ لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر، ويُتمَّ

نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً، وَيُنْصِرَكَ اللَّهُ نَصْراً عَظِيماً»، وَلَا حَظَّ
ارتباط النعمة بالصفح والغفران؟ إن النعمة التي أسبغها الله عليه في صورة
الفتح دليل على أنه سيحانه قد غفر له ذنوبه. وإن كان الغفران والرحمة
من صفات الله عز وجل، فهما بالتالي من الصفات التي يجدر بالمؤمنين
محاولة التحلّي بها، والتي يجدر بالنبي عليه الصلاة والسلام أن يُظهرها
تجاه أعدائه السابقين من أهل مكة الذين نصره الله عليهم وأمكنه منهم.
فما لأحد أن يطمع في رحمة الله ما لم يظهر الرحمة في معاملاته مع
غيره من سائر البشر، ولا في غفرانه ما لم تكن السماحة والصفح الكريم
من أخلاقه.

وقد كان موقف رسول الله من أهل مكة الذين كذبوه ونأوه وأخرجوه
من مدينتهم وحاربوه، كريماً سخياً وقت فتحها إلى أقصى حدود الكرم
والسخاء. فهو حين التقى بجمع من ساداتهم وسألهم عما يظنونهم فاعلاً
بهم، وأجابوه بقولهم: أخ كريم وابن أخ كريم، قال عليه الصلاة والسلام:
اذهبوا فأنتم الطلقاء! فهو قد آمنهم على أنفسهم وأموالهم دون أن يشترط
إسلامهم. فالواقدي يحدثنا في كتابه «المغازي» أن سهيل بن عمرو دخل
داره حين فتح المسلمون مكة، وأرسل ابنه عبد الله إلى النبي يطلب له
جواراً. فلما التقى عبد الله بالنبي قال: تؤمن أبى يا رسول الله؟ قال:
نعم، هو آمن بأمان الله فليظهر. لعمري إن سهيلاً له عقل وشرف، وما
مثل سهيل جهل الإسلام. فخرج عبد الله إلى أبيه فأخبره، فكان يُقبل
ويُدبر وهو آمن دون أن يسلم، بل وخرج بعد ذلك في جيش النبي إلى
حنين وهو على شركه، حتى أسلم بعد ذلك في الجعرانة.

(٣)

وجاءت أم حكيم امرأة عكرمة بن أبي جهل، فقالت للنبي: يا رسول الله، قد هرب عكرمة منك إلى اليمن وخاف أن تقتله، فأمنه. قال: هو آمن. فخرجت أم حكيم في طلب زوجها حتى أدركته فقالت: أي عكرمة! قل لا إله إلا الله ولا تُهلك نفسك. فأبى وقال: ما هربت إلا من هذا. قالت: على أي فقد استأمنت لك محمداً. فرجع معها. وإذا رآه النبي مقبلاً قال لأصحابه: لا تسبوا أباه، فإن سب الميت يؤذي الحي ولا يبلغ الميت. فلما وصل عكرمة إلى مكانه وثب النبي إليه فرحاً به. قال عكرمة مشيراً إلى زوجته: يا محمد، إن هذه أخبرتنني أنك أمنتني. قال النبي: صدقت، فانت آمن. قال: فإلى ما تدعو يا محمد؟ قال: أدعوك إلى أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأنى رسول الله، وأن تقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتعمل وتعمل، حتى عدّ خصال الإسلام. فقال عكرمة: والله ما دعوت إلا إلى الحق وأمر حسن جميل. ثم نطق بالشهادة. فقال النبي: لا تسألني اليوم شيئاً أعطيه أحداً إلا أعطيتكه. قال: فإني أسألك أن تستغفر لي كل عداوة ماديتهكها أو حرب لقيتكم فيها أو كلام قبيح قلته في وجهك أو وأنت غائب عنه. قال النبي: اللهم اغفر له.

(٤)

وفي تفسير الطبري أن رجلاً في حياة رسول الله قرأ أمام عمر بن الخطاب سورة قراءة غير قراءة عمر لها. فلما أراد عمر أن يصحح له قراءته قال: لقد قرأتها على رسول الله فلم يُغيّر عليّ. فاختصما عند النبي، وقال الرجل: يا رسول الله، ألم تُثرتني آية كذا وكذا؟ قال: بلى. فوقع في صدر عمر شيء، وعرف النبي ذلك في وجهه فضرب صدر

عمر وقال: يا عمر، إن القرآن كله صواب، ما لم تجعل رحمةً عذاباً،
أو عذاباً رحمةً.

(٥)

وفى «أسباب نزول القرآن» للواحدى أن عثمان بن طلحة كان سادى
الكعبة. فلما دخل النبى صلى الله عليه وسلم مكة يوم الفتح، أغلق عثمان
باب البيت (وكان لا يزال على شركه) وصعد السطح. فطلب رسول الله
المفتاح، فقيل له إنه مع عثمان. فلما أرسل فى طلبه أبى، وقال: لو
علمت أنه رسول الله لما منعته المفتاح. فلوى على بن أبى طالب يده وأخذ
منه المفتاح عنوة وفتح الباب. فدخل النبى البيت وصلى فيه ركعتين.
فلما خرج سأل العباس بن عبد المطلب أن يعطيه المفتاح ليجمع له بين
السقاية والسدانة، فأنزل الله تعالى آية: ﴿إِن اللّٰهُ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا
الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا، وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾. وأمر
رسول الله على أن يرد المفتاح إلى عثمان بن طلحة ويعتذر إليه عما بدر
منه. فلما فعل على ذلك قال له عثمان: يا على، أكرهت وأذيت ثم
جئت ترفق؟ فقال على: لقد أنزل الله قرآنا فيك. وقرأ عليه الآية. فقال
عثمان: أشهد أن محمداً رسول الله. وأسلم.

(٦)

هنا فى قصة الواحدى مثل واضح لأسلوب النبى فى الدعوة ولسماحة
دين الإسلام يذكرنا بخرافة لافوتتن عن الريح والشمس اللتين تراهنتا
أيهما أقدر على أن يجرد رجلا فى أحد الحقول من عباءة يلبسها. فأما
الريح فهبت تحاصره وتشدد من هجومها، فإذا الرجل يزيد من تشبته
بالعباءة وإحكام قبضته عليها. وأما الشمس فقد طلعت فى هدوء وثقة إلى

كبد السماء، تبتّ حرارتها، حتى رأى الرجل من المناسب أن يخلع
العباءة من تلقاء ذاته ويلقى بها جانباً!

وقد كان عنف عليّ بن أبي طالب كفيلاً بأن يزيد من عداة عثمان، بن
طلحة للإسلام إذ يُسلب عنوة حقّ بنى عبد الدار فى السّدانة، لولا تدخل
رسول الله، وردّه الأمانة إليه، وأمره علياً أن يعتذر عن تصرفه العنيف
معه. وكتب السيرة مليئة بالمواقف التى حقق فيها الرسول بسماحته
وحلمه، ولينه وسمة صدره، ما لم يحققه السيف والعنف، والغلبة
والغظاظه. ﴿ولو كنت فظاً غليظ القلب لا تُفَضُّوا من حَوْك﴾.

(٧)

ومع هذا، فما نحن نشهد بيننا اليوم من الغلاة والمتطرفين ممن يظنون
أنهم تأدّبوا بآداب القرآن والسيرة، ويحسبون أنهم قد اتخذوا من النبى
عليه الصلاة والسلام أسوة ومثلاً يقتدى، من يشهد لسان حالهم وسلوكهم
مع إخوانهم فى الدين وأهل الكتاب بأن المسلم كلما ازداد قظاظه وكراهة
لخالفه فى الرأى - إلى اليمين أو اليسار - كان أقرب إلى الله تعالى وإلى
الإيمان بالحق. وأغلب ظننى أنهم حين يتلون من آى الذكر الحكيم آيات
مثل ﴿وجادلهم بالتي هى أحسن﴾ أو ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة
والموعظة الحسنة﴾، يودّون فى أنفسهم أن القرآن لم يوردها. وكثيراً ما
تذكّرنا أفعالهم وتصرفاتهم الناضجة بالكراهية والحدق والعنف، بشخصية
جافير فى رواية «البؤساء» لفكتور هوجو. وجافير هذا ضابط شرطة هو
ابن لمجرم أثيم. وقد بلغ به مقتته لأبيه، وهو بعد صبي، حدّاً قرّر معه أن
يخالفه فى كل شيء. فكان أن أصبح ضابط شرطة يتعقب المجرمين من

أمثال أبيه في كفاءة ومثابرة وغلظة قلب. ثم إذا به يتبين في النهاية في لحظة صدق أنه في حقيقة أمره لا يعدو أن يكون مجرماً كوالده، وإن كان إجرامه قد تستر وراء زى ضابط الشرطة، وستار تطبيق العدالة. فهو يعامل الخارجين على القانون معاملة لا تقل إجراماً عن معاملة أبيه للأبرياء!

هو إذن مجرد حقد لدى هؤلاء، كان يمكن أن يتخذ أى صورة من الصور، ثم اتخذ بالمصادفة المحضة صورة التطرف في الدين. وكما أن الخوارج كانوا في الحقيقة قوماً من البدو خرجوا على السلطة ثقيلة الوطأة واتهموها بالكفر، وهجروا المدن البغيضة إلى قلوبهم وأسموها دار حرب، واستأنفوا الغارات الجاهلية بفرض السلب والغنيمة وخالوا أنها جهاد، فكذلك هؤلاء: الفظظة والحقد والكراهية وتجاهل سماحة الإسلام هي الأصل والدين رقيق لا يكاد يخفى الوجه الكئيب وراءه.

والذى نعلمه أن القديس فرانسيس داسيسى كان يحض أتباعه دائماً على أن يعكس مسلكتهم وعلاقاتهم بالناس أثر العقيدة في نفوسهم وأخلاقهم. وكان من رأيه أن هذا هو خير طريق إلى اجتذاب الناس إلى الدين، إذ من المؤكد أنهم سيتساءلون عما عماء قد هذب على هذا النحو من خلقهم وطباعهم ومعاملاتهم، حتى إذا ما عرفوه مالوا إلى اختباره بأنفسهم.

كما نعلم أن الإسلام إنما انتشر ووطد دعائمه في أنحاء عديدة من أفريقيا السوداء وجنوب شرقي آسيا، لا بالسيف والقهر، ولا حتى بالتبشير والدعوة، وإنما بفضل سماحة خلق التجار المسلمين الوافدين إلى تلك المناطق للتجارة، وأمانتهم ورفقهم ودماثة طبعهم ووقارهم، مما دفع

الناس إلى الإقبال على سؤالهم عن تعاليم دينهم، ثم اعتناق هذا الدين الذى كان له الفضل الأكبر فى غرس هذه الفضائل.

فإن كان مسلمو هذا الزمان مؤمنين حقاً، فما بالهم لا ينتهجون طريق هؤلاء؟ وما بالهم لا يلقون بالاً إلى تلك المواقف التى كان النبى صلى الله عليه وسلم يستشير فيها أصحابه بشأن مشرك أو منافق، فيوصى بعضهم بقتله، وبعضهم بإخراجه من المدينة، فيهدئ الرسول من غلوائهم وغضبهم، ويتبسم قائلاً:

- بل نترفق به - ونحسن إليه.

- ٨ -

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن آتَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾.

وإنه لمن المؤسف حقاً، رغم وضوح معنى الآية، أن المسلمين لم يكفوا قط، منذ وفاة النبى إلى يومنا هذا، عن عادة تكفير من يخالفهم فى رأى: عثمان كَفَرُوهُ، وعليّ بن أبى طالب كَفَرُوهُ، ومعاوية كَفَرُوهُ، وقد سبق لهم أن كَفَرُوا الإمام الغزالى ثم أسموه بعد موته حجة الإسلام ومحجة الدين، وكَفَرُوا الباقلانى ثم قالوا إنه صاحب أجل الكتب فى إعجاز القرآن، وكَفَرُوا ابن تيمية الذى باتت تعاليمه أساس المذهب الوهابى السائد الآن فى المملكة العربية السعودية وفى قطر، وكَفَرُوا الطبرى صاحب أعظم تفسير للقرآن، وكَفَرُوا الشيخ محمد عبده حين دعا إلى استخدام ماء الصنبور فى الوضوء بدلاً من الميضة التى كانت تعجّ بالجراثيم، وكَفَرُوا جمال الدين الأفغانى وهو ما هو.

قال الغزالي في كتابه «فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة» :

«زعمت طائفة أن في بعض كتبى ما يخالف مذهب الأصحاب المتقدمين، وأن العدول عن مذهب الأشعرى، ولو فى قيد شبر، كفر. فهون عليك أيها الأخ المشفق على نفسك واصبر على ما يقولون. فأتى داع أكمل وأقل من سيد المرسلين وقد قالوا إنه مجنون من المجانين؟ وأتى تتجلى أسرار الملكوت لقوم معبودهم سلاطينهم، وقبلتهم دنائيرهم، وإرادتهم جاههم؟ فهؤلاء من أين تميز لهم ظلمة الكفر من ضياء الإيمان؟ «إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى».. خاطب صاحبك وطالبه بحد الكفر، فإن زعم أن حد الكفر ما يخالف مذهب الأشعرى، أو مذهب الحنبلى، أو مذهب المعتزلى، أو غيرهم، فأسأله من أين ثبت له كون الحق وفقاً عليه حتى قضى بكفر الباقلاانى، ولم صار الباقلاانى أول بالكفر بمخالفته الأشعرى من الأشعرى بمخالفته الباقلاانى؟ ولم صار الحق وفقاً على أحدهما دون الثانى؟ أكان ذلك لأجل السبق فى الزمان؟ فقد سبق الأشعرى غيره من المعتزلة فليكن الحق للسابق عليه! أم لأجل التفاوت فى الفضل والعلم؟ فبأى ميزان قُدر درجات الفضل حتى لاح له أن لا أفضل فى الوجود من متبوعه؟! فإن رخص للباقلاانى فى مخالفة الأشعرى، فلم حَجَرَ على غير الباقلاانى؟ وما الفرق بين الباقلاانى والكرابيسى والقلانسى وغيرهم؟.. إن من جعل الحق وفقاً على واحد بعينه هو إلى الكفر أقرب. ومع ذلك فإن كل فرقة تكفر بمخالفتها: فالحنبلية تكفر الأشعرى، والأشعرى يكفر الحنبلى، والمعتزلى يكفر الأشعرى. ولا ينجيك من هذه الورطة إلا أن تعرف حد التكذيب والتصديق وحقيقتهما، فيكشف لك غلو الفرق وإسرافها فى تكفير بعضها

بعضاً. فهم ضَيِّقُوا رحمة الله الواسعة على عباده، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا قذف أحد المسلمين صاحبه بالكفر فقد بَاء به أحدهما».

(٩)

كذا قال الغزالي رحمه الله. ونضيف نحن قولنا إن أظلم الناس لنفسه ولغيره من قضى بحرمان الآخرين من استخدام نعمة التفكير التي أنعم الله عز وجل بها علينا، وقصرها على نفسه.



ثم لا حلّ بعد هذا كله إلا في التمسك بأهداب سماحة الإسلام، وبمبدأ الاحترام المتبادل القائم على حق الغير في المخالفة انطلاقاً من قناعاته وانسجاماً معها، وفي العمل على توفير المناخ الثقافي الذي يرفض العنف الجسدي والإرهاب الفكري، ويسمح بتطوير قراءة النص مواكبة لتطوّر المجتمع وظروف العصر.

ولا حلّ إلا في التفات كلّ منا إلى من هم على يمينه فيقول:

— السلام عليكم ورحمة الله،

وإلى من هم على يساره فيقول:

— السلام عليكم ورحمة الله.

كتب للمؤلف

- ١ - دليل المسلم الحزين دار الشروق - القاهرة ١٩٨٣
- ٢ - الحروب الصليبية في كتابات المؤرخين العرب المعاصرين لها.
مكتبة النهضة المصرية ١٩٨٣
- ٣ - فضل الإسلام على الحضارة الغربية. دار الشروق - القاهرة ١٩٨٣
- ٤ - ألف حكاية وحكاية من الأدب العربي القديم - المجلد الأول
دار الشروق - القاهرة ١٩٨٤
- ٥ - حول الدعوة إلى تطبيق الشريعة الإسلامية.
- ٦ - في بيت أحمد أمين. دار النهضة العربية - بيروت ١٩٨٥
- ٧ - التراث وتحديات العصر (بالاشتراك). دار الهلال - القاهرة ١٩٨٥
- ٨ - التسامح الديني والتفاهم بين المعتقدات (بالاشتراك). مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت ١٩٨٥
- ٩ - التكنولوجيا تنمية المجتمع العربي (بالاشتراك). مركز اتحاد المحامين العرب - القاهرة ١٩٨٦
- ١٠ - الإسلام في عالم متغير. مكتبة مدبولي - القاهرة ١٩٨٨

- ١١ - ألف حكاية وحكاية من الأدب العربي القديم - المجلد الثانى
دار الشروق - القاهرة ١٩٨٩
- ١٢ - أزمة حقوق الإنسان فى الوطن العربى (بالاشتراك).
مركز اتحاد المحامين العرب - القاهرة ١٩٨٩
- ١٣ - الإمام (مسرحية). مكتبة مدبولى - القاهرة ١٩٩٠
- ١٤ - مصابيح أقوال العرب. مكتبة مدبولى - القاهرة ١٩٩٠
- ١٥ - حوليات العالم الإسلامى. مكتبة مدبولى - القاهرة ١٩٩٠
- ١٦ - المائة الأعظم فى تاريخ الإسلام. مكتبة مدبولى - القاهرة ١٩٩١
- ١٧ - أهم مائة كتاب فى مائة عام (بالاشتراك).
دار الهلال-القاهرة ١٩٩٢
- ١٨ - رسالة من تحت الماء (٤٧ قصة قصيرة).
دار سعاد الصباح القاهرة / الكويت ١٩٩٢
- ١٩ - نهاية التاريخ وخاتم البشر (مترجم عن فوكوياما).
مركز الأهرام للترجمة والنشر ١٩٩٣
- ٢٠ - مصر فى عالم متغير (بالاشتراك).
اللجنة المصرية لتضامن الشعوب الأفروآسيوية ١٩٩٣
- ٢١ - المثقفون والإرهاب (بالاشتراك).
الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٣
- ٢٢ - جذور الإرهاب (بالاشتراك). الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٣
- ١٥٥

- ٢٣ - الاجتهاد فى الإسلام. الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٣
- ٢٤ - الموقف الحضارى من النزعات الدينية. دار سيناء - القاهرة ١٩٩٤
- ٢٥ - نحو تطوير التشريع الإسلامى (مترجم عن عبد الله النعيم).
- دار سيناء - القاهرة ١٩٩٤
- ٢٦ - التيار الإسلامى فى مصر. جمعية النداء الجديد - القاهرة ١٩٩٤
- ٢٧ - التيارات الفكرية فى مصر فى القرن العشرين.
- جمعية النداء الجديد - القاهرة ١٩٩٤
- ٢٨ - حرية الرأى والمقيدة (بالاشتراك).
- المنظمة المصرية لحقوق الإنسان ١٩٩٤
- ٢٩ - ترجمة لمسرحية شكسبير: «تاجر البندقية».
- دار الشروق - القاهرة ١٩٩٤
- ٣٠ - ترجمة لمسرحية شكسبير: «يوليوس قيصر».
- دار الشروق - القاهرة ١٩٩٥
- ٣١ - ترجمة لمسرحية شكسبير: «حلم ليلة فى منتصف الصيف».
- دار الشروق - القاهرة ١٩٩٥
- ٣٢ - ترجمة لمسرحية شكسبير: مكبث. دار الشروق - القاهرة ١٩٩٥
- ٣٣ - خضرة - (قصة للأطفال). الجمعية الكويتية لتقدم الطفولة ١٩٩٥
- ٣٤ - موسوعة الطفل (بالاشتراك).
- المجموعة الثقافية المصرية / الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٩

حسين أحمد أمين

- ولد في القاهرة في ١٩ يونيو ١٩٣٢. وهو نجل المؤرخ الإسلامى الكبير الدكتور أحمد أمين.
- تخرج في كلية الحقوق، جامعة القاهرة، عام ١٩٥٣.
- عمل محامياً، فمذيعاً بالإذاعة المصرية، فمذيعاً بالقسم العربى بهيئة الإذاعة البريطانية بلندن.
- التحق بالسلك الدبلوماسى المصرى عام ١٩٥٧، وعمل ملحقاً فسكرتيراً ثالثاً بالسفارة فى أوتاوا (كندا)، فسكرتيراً ثانياً بالسفارة فى موسكو (روسيا)، فمستشاراً بالسفارة فى لاجوس (نيجيريا)، فوزيراً مفوضاً بالسفارة فى بون (ألمانيا)، فقتلاً عاماً فى ريمودى جانيرو (البرازيل)، فسفيراً لمصر فى الجزائر.
- انتدب خلال عمله بوزارة الخارجية مستشاراً فنياً لوزير الثقافة، وأعيد للعمل نائباً لمدير مركز الأمم المتحدة للإعلام بالقاهرة.
- حصل كتابه «دليل المسلم الحزين» على جائزة أحسن كتاب فى معرض القاهرة الدولى للكتاب عام ١٩٨٤، وصدرت الترجمة الفرنسية له فى باريس عام ١٩٩٢.
- أهدت له الحكومة الألمانية وسام الاستحقاق الأكبر عام ١٩٨٣.
- عمل :

— رئيساً للجنة الثقافية بجمعية النداء الجديد بالقاهرة.

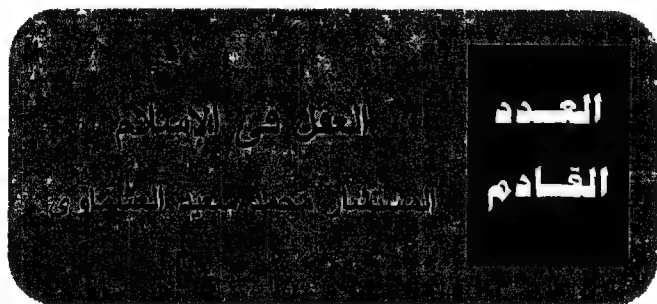
— عضواً بمجلس إدارة جمعية النداء الجديد.

– عضواً بمجلس أمناء مركز ابن خلدون للدراسات الإنمائية
بالقاهرة

– مستشاراً للجنة الدولية للصليب الأحمر بجنيف.

– أستاذاً للدراسات الإسلامية بالجامعة الأمريكية بالقاهرة.

– أستاذاً زائراً بجامعة جورجيتاون بواشنطن.



الفهرس

الموضوع	الصفحة
إهداء	٥
مقدمة	٧
كيمياء السعادة:	
١ - علمتني الحياة	١٠
٢ - المزاج والشخصية	٢٢
٣ - السعادة العائلية	٣٢
٤ - المكانة الاجتماعية والسمعة	٤٢
٥ - الشهرة ما لها وما عليها	٥٢
٦ - معايشة الواقع الحى	٦٣
- رب جنبني شرب هذا الكأس	٧٥
- حول سلبيات مهنة الدبلوماسى	٧٨
- ساكن قصادى وباحبه	٨٣
- بعض مشكلات الناشرين ورؤساء التحرير	٨٦
- أى خلل هذا فى القيم ؟	٩٣
- ١ - خواطر وانطباعات من واشنحطون	٩٦
- ٢ - خواطر وانطباعات من واشنحطون	١٠٦
- ٣ - خواطر وانطباعات من واشنحطون	١١٥
- المستقبل الذى ينتظرنا	١٢٤
- مفهوم العشق عند الغزالى وشوينهاور	١٣٤
- سراحة الإسلام	١٤٥
١٥٩	

إشتراك في سلسلة اقرأ تضمن وصولها إليك بانتظام

الإشتراك السنوي:

- داخل جمهورية مصر العربية ٣٦ جنيهاً
 - الدول العربية واتحاد البريد العربى ٥٠ دولاراً أمريكياً
 - الدول الأجنبية ٧٥ دولاراً أمريكياً
- تسدد قيمة الإشتراكات مقدماً نقداً أو ~~بشيكات~~ بإدارة الإشتراكات بمؤسسة
الأهرام بشارع الجلاء - القاهرة
أو بمجلة أكتوبر ١١١٩ كورنيش النيل - ~~الجيزة~~ القاهرة.

١٩٩٨/١٧٥٣٢	رقم الإيداع
ISBN 977-02-5724-9	الترقيم الدولى

١/٩٨/١٠٥

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)

هل السعادة ممكنة؟ أم هي هدف
وهمي من الصعب - إن لم يكن من
المستحيل تحقيقه؟

فإن كانت ممكنة، فهل لها مقومات
ثابتة وواحدة بالنسبة للكافة. بالرغم من
اختلاف ظروف الأفراد وطبيعة تكوينهم؟
أم هي مسألة نسبية، بحيث يحق لكل
منا أن يسعى إلى نيلها بطريقته الخاصة؟
فإن كانت مقوماتها ثابتة، فهل هي
تخضع لإرادة الفرد؟ أم أنها من هبات
القدر لا حيلة لنا فيها؟

هل يحق لنا الحديث عن عناصر
«كيميائية» لا غنى عنها في نيل
السعادة، أو في المساعدة على نيلها؟
الإجابة عن كل هذه الأسئلة نجدها
بين دفتي هذا الكتاب.



دارالمعارف

٤٠٦٩٧١/٠١

